الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٠ / ٥٦٧٦٩

العدد ٢٧٦ الثلاثاء ١٨ من ربيع الثاني سنة ١٣٦٣ — ١١ من أبريل سنة ١٩٤٤ السنة السادسة

فهرس العــــــدد

أمريكا والكتاب الأبيض

كدنا أن ننسى أن بين العالم القديم والجديد محيطاً ضخماً عرضه أربعة آلاف من الأميال ، يفصل بين عالمين ، ويفرق ما بين شقي المعمور . كدنا أن ننسى وجود هذا المحيط منذ أن خاضت أمريكا — أو اضطرت لأن تخوض — غمار هذه الحرب ، وخرجت نهائياً من تلك العزلة التي استمسكت بها دهراً طويلا ، وأخذت تشارك العالم القديم خطوبه وحروبه ، وتشترك في عزائمه ومحافله ، وفي حل معضلاته ومشاكله . هنالك صفق كثير من الناس طرباً ، بأن أمريكا قد أدركت ، بعد لأي ، أن شئونها من شئون هذا العالم ، وأن الشر إذا استفحل في جانب من الكوكب ، فإن سمه لا يلبث أن يسري في الجسم كله ، وأن النجاة من الشر لا تكون إلا بالقضاء على الشر حيثما وجد ، وفي أي ركن من أركان الأرض ظهر .

هنالك أخذنا نحس أن أمريكا قد اقتربت من العالم القديم ، وأن المحيط الأطلسي الضخم يوشك أن يتلاشى ، وأن ليس هنالك فوارق في التفكير والمبادئ تفرق بين العالم القديم والعالم الجديد ، وأن أمريكا — تلك الدولة الديمقراطية العظيمة — ستلقي بنفوذها الهائل ، وقوتها الساحقة ، في جانب الدفاع عن الحق وإنصاف المظلوم ، وفي إنشاء عالم جديد يسوده العدل بين الشعوب كبيرها وصغيرها .

ثم قيل لنا إن أمريكا لم تدخل هذه الحرب — كما دخلت الحرب الماضية — وهي جاهلة بشئون العالم ،

وبالمشاكل العميقة الدقيقة التى تكدر صفو العلاقات بين الشعوب ، بل تدخلها هذه المرة وهى على علم دقيق بما يجرى فى كل قطر ، وبما تجيش به الصدور فى كل بلد ، وبمشاكل كل شعب وآماله وأمانيه ؛ ولدى الحكومة الأمريكية التقارير المستفيضة ، مما كتبه رسلها فى كل ركن من أركان العالم بعد دراسة وتمحيص .

وهكذا لم يعد هناك محل لأن يشكو أحد من أن أمريكا تؤثر سياسة العزلة ، بل أخذت الآمال تملأ قلوب الناس بأن دخول الولايات المتحدة الأمريكية ميدان السياسة الدولية معناه أن صفحة جديدة ستفتح فى علاقات الشعوب ، وهى صفحة نقية ناصعة خالية من شوائب البطش والعنف والاستغلال .

ونحن ، أبناء الدول الشرقية ، والدول الصغيرة ، قد كنا أول المرحبين بأن أمريكا قد دخلت ميدان السياسة العالمية متشحة ، وبرة رأى ومشاريع واسعة جليلة . فلقد اشتهر عن أمريكا ومن الأمريكيين أمور [illegible] محبوبة إلى قلوب الأمم الصغيرة ، اشتهر عنها مقتها للاستعمار فى جميع صوره وأشكاله ، ومقتها للوسائل العنيفة تستخدم فى إخضاع الضعيف لإرادة القوى المدل بقوته . ولعل أمريكا أول من ابتكر عبارة « حق تقرير المصير » ، ونادت بأنه لا يجوز فرض حالة سياسية على شعب من الشعوب أو جماعة من الجماعات إلا برضاها وموافقتها .

من أجل هذا كله أخذنا نرقب ما يصدر عن أمريكا من رأى ، وما تبديه من فكر ، وتتبعنا ما يقول ساستها فى خطبهم ، لكى نرى أى سماء جديدة ستظل العالم ، وأى أرض جديدة ستمهد لحياة الشعوب . وراقبنا بوجه خاص ما يحمله إلينا البرق ، وتنقله إلينا الصحافة عن شئوننا نحن سكان العالم العربى والإسلامى . فإذا بأهم الأمور التى شغلت أمريكا فى هذا الركن الكريم من أركان الأرض أمران لا ثالث لهما : الأمر الأول مد أنابيب البترول من الخليج الفارسى إلى القطر المصرى . والأمر الثانى : ضجة هائلة يثيرها رجال السياسة والصحافة هناك من أجل إكراه القطر الفلسطينى على قبول عدد لا حد له من مهاجرى اليهود .

لا يكاد يمضى يوم حتى تنقل إلينا صحفنا أنباء من أمريكا عن فلسطين ؛ منها ما يدل على اهتمام البرلمان الأمريكى بشئون ذلك القطر ، ومنها ما يشير إلى الملايين من الدنانير يجمعها اليهود من أجل شراء أرض فلسطين ، ومنها تصريحات يدلى بها الرئيس ، أو حاخام يتحدث بلسان الرئيس ؛ ومنها بيانات تصدرها الصحف ، أو ينشرها زعماء اليهود . وهذه الأنباء والتصريحات ، مهما اختلفت مصادرها ، فإنها جميعاً تضرب على نغمة واحدة ، وتهتف بلغة واحدة ، وهى نغمة كلها إعراب عن العطف الشديد على اليهود ، وضرورة منحهم فلسطين لكى تكون [illegible] .

[illegible] فى هذه التصريحات والأنباء ذكر أو إشارة [illegible] زعيم من الزعماء أو كاتب من الكتاب فى أمريكا ، فيشير ، ولو من بعيد ، إلى الأمة العربية التى تسكن فلسطين ، كأنهم جميعاً يتعمدون أن يغفلوا ذكر هذه الأمة التى طالما رحبت باليهود وعطفت عليهم ، ومنحتهم المناصب السامية ، وأغدقت لهم الخيرات .

إنى أستعرض — وأنا أكتب هذا المقال — قصاصات من صحفنا اليومية ، كلها خاصة بفلسطين ، وكلها صادرة عن جهات أمريكية عليا ومتوسطة ، وليس فى واحدة منها إشارة يشتم منها أن فى ذلك القطر سكاناً ، اسمهم العرب . فهل يدل هذا الإغفال العجيب على مبلغ علم أولئك الكتاب والرؤساء بقطر فلسطين وشعبه الكريم ؟ وهل يدل ذلك الإهمال على أنهم لا يعرفون أن هنالك أمة اسمها الأمة العربية ، وأن فلسطين وطن من أوطانها ؟ . وبرغم هذا فقد أخذت تلك الهيئات والشخصيات الممتازة تدلى

بالرأى ، وتشير بالسياسة التى يجب اتباعها فى فلسطين .

فهل يجوز لنا بعد ذلك أن نزعم أن المحيط الأطلسى قد زال ، وأن أمريكا قد دنت من العالم القديم ، حتى أصبحت تحس نزعاته ونبضات قلبه ، وباتت ملمة أحسن إلمام بما فى النصف الشرقى للكرة من مشاكل . لقد أثبتت لنا تلك الإشارات إلى فلسطين — مع الأسف الشديد — أن المحيط لا يزال حائلا قويا دون اطلاع تلك الديمقراطية الأمريكية الجديدة على شئون بلاد الشرق القديم . فقد أخذت أمريكا تتدخل فعلا فى شئون الشرق العربى ، وتدلى فيه بآراء هائلة ، كأنها صاحبة حق فى تصريف شئون هذا العالم ، ومع ذلك فإنها قد أثبتت أنها لم تلم بعد الإلمام الصحيح بشئون هذا الركن الخطير من الأرض .

وقد نشرت جريدة « إيكونومست » — وهى من الصحف الشديدة الاعتدال ، فى أول الشهر الماضى مقالا عن تدخل أمريكا فى شئون الشرق الأوسط ، قالت فيه : « إن الولايات المتحدة تنوى أن يكون تدخلها فعالا فى شئون الشرق الأوسط . . . ولكن التدخل من جانب واحد ، وبدون اطلاع على حقائق الأمور سيكون أسوأ لأمريكا من سياسة العزلة . ولسوء الحظ تظهر حاليا التدخل الأمريكى فى سياسة الشرق الأوسط علامات تدل على قلة النظر البعيد » .

كذلك نشرت جريدة منشستر جارديان مقالا شرحت فيه مظاهر تدخل أمريكا فى أمور البلاد العربية حديثا ، وقالت فيه : « أما من وجهة نظر بريطانيا ، وجميع شعوب الشرق الأوسط ، فإن انسحاب الأمريكيين مرة أخرى من المنطقة نفسها أفضل من هذا النوع من التدخل » [*] .

وهكذا نرى صحيفتين اشتهرتا بالاعتدال والإنصاف يصفان التدخل الأمريكى فى شئون الشرق الأوسط بأنه يجرى بدون اطلاع على حقائق الأمور ، وأنه أفضل للعالم ولأمريكا نفسها أن تعود إلى عزلتها بدلا من هذا التدخل الذى لم يبن على علم واطلاع .

ومع ذلك فإن الشعب الأمريكى اشتهر بميله إلى الحرية والإنصاف ، وقد بلغ من حبه للإنصاف أن حكومته أمرت بأن تحفظ باسم الزعيم هتلر جميع الأموال المتحصلة من بيع كتابه المعروف « كفاحى » إلى أن تنتهى الحرب ويبت فى هذه الأموال ، فإما أن ترد إلى صاحبها أو إلى ورثته ، أو يتصرف فيها طبقا لشرعة العدل والإنصاف . ذلك مبلغ حرص أمريكا على حفظ حقوق هذا الزعيم الألمانى الذى أعلن عليها الحرب ، فما مبلغ حرصها على حقوق الشعب العربى الصديق الذى لم يبد نحوها إلا كل صداقة واحترام ؟ .

كان أول مظهر لاهتمام أمريكا بالشعب العربى هذا العام اقتراح قدم إلى مجلس البرلمان الأمريكى يقضى بتحويل فلسطين إلى دولة يهودية ؛ كأن البرلمان الأمريكى قد فرغ من النظر فى شئون أعدائه من اليابان والألمان ، وقضى فى مصير أرضهم وديارهم ، فأخذ ينظر فى أرض الأصدقاء والحلفاء التى تمد جيوشهم اليوم بالبترول والزاد ، وبمختلف المساعدات القيمة ، فأخذ يتصرف فى تلك الأرض يمنحها لليهود لكى يقيموا فيها دولة .

ثم جاء الرئيس روزفلت نفسه ، فلم يرد أن يتحدث بنفسه ، بل أناب عنه حاخامين عظيمين لكى يعلنا للعالم أن الحكومة الأمريكية لم توافق على نصوص الكتاب الأبيض . ولا ندرى كيف غاب عن الرئيس ومن حاخاميه الفاضلين ، أن الكتاب الأبيض وثيقة ترجع إلى ما قبل هذه الحرب ، تعهدت بمقتضاها الحكومة البريطانية صاحبة الانتداب على فلسطين ، أن تسلك فى انتدابها على الأرض المقدسة سياسة خاصة . تعهدت بهذا أمام العالم العربى ، وأمام عصبة الأمم ، وأقرها على هذه

(*) راجع خلاصة المقالين فى المصرى (١١/٣/٤٤) .

السياسة البرلمان البريطانى ؛ ولم تكن أمريكا فى ذلك الوقت عضواً فى عصبة الأمم ، وليس لها صلات ببلاد الشرق الأوسط ، وهى ناعمة هادئة فى عزلتها التى أحبتها واختارتها . فلم يكن من المعقول أن تدعى حكومتها للموافقة أو عدم الموافقة على كتاب وعهد لا يمسها من قريب ولا بعيد . وليس لها شأن به ولا بما جاء فيه .

وكثير من المتحدثين عن فلسطين فى أمريكا يرجعون اهتمامهم بأمرها بعطفهم على اليهود الذين تعرضوا فى هذه الحرب لويلات كثيرة ، وينادون بضرورة فتح أبواب فلسطين على مصاريعها للاجئين منهم ، ومساعدتهم على الانتقال إلى هذا القطر . وليس من شك فى أن العالم كله ناقم على تلك القوى الشريرة التى أثارتها هذه الحرب ، وكان من جرائها أن أصيب كثير من الطوائف والشعوب بالتشرد والتعذيب ، وأنزل الويل والثبور بساحة جماعات بريئة ، ليس لها فى هذه الحرب جريرة اقترفتها ولكن هذا المصير الأليم ليس مقصوراً على اليهود وحدهم فقد عم شعوبا وجماعات عديدة ، عانت فى هذه الحرب أشد الويلات ، ولم يبد أولو الأمر فى أمريكا اكتراثا بهم وبمصيرهم ، وبما يعانون من ضروب العذاب ، بل قصروا عطفهم ودعايتهم على اليهود ، ونادوا بأنه يجب إرسالهم إلى فلسطين وحدها دون سائر أقطار العالم . ومن العجيب حقاً أن أولئك الكتاب والقادة الأمريكيين ، لم ينادوا بفتح أبواب أمريكا نفسها لهؤلاء اللاجئين ، وأمريكا تزيد فى المساحة والثروة بنحو ألف مرة على قطر فلسطين .

ونحن مضطرون فى هذه الحال لأن نستنتج أن ليس الغرض الصحيح من كل هذه النداءات والتصريحات إغاثة الشريد ومساعدة الملهوف ، وإلا لأمكن إيواء اللاجئين بسهولة فى أقطار واسعة فسيحة بدلا من فلسطين التى نالت قسطها — بل وفوق قسطها — من الهجرات اليهودية ، والتى أصبحت اليوم تضيق عن قبها . ولا نستطيع أن نتحدث عن الغرض الحقيقى الذى تسعى نحوه السياسة الأمريكية ، لأننا لا نريد أن ندلى بحكم فى أمر لم يتح لنا الإلمام بدخائله ، وليس يستحسن أن نحكم بالظواهر وحدها .

ولقد أسرفت الدعايات الأمريكية فى أمر الهجرة إلى فلسطين إسرافاً يوشك أن يسىء إلى الحكومة والشعب الأمريكى أبلغ الإساءات . فلقد طالعنا بالأمس تصريحاً خطيراً من حاكم ولاية نيويورك ، ولعله أن يكون أحد المرشحين للجمهورية الأمريكية هذا العام ، ينادى فيه صراحة بأن حكومته يجب أن تتخذ الإجراء اللازم للضغط على بريطانيا لكى تعدل عن سياسة الكتاب الأبيض . فهل درى حاكم ولاية نيويورك ما هذا الكتاب الأبيض الذى ينادى بتمزيقه؟ ألم يدر بخلده أن هذا الكتاب يتضمن عهدا قطعته دولة محترمة على حريتها ومن تلقاء نفسها ، وتقيدت به أمام العالم كله ؟ فإذا كان مما يستبيحه حاكم نيويورك أن تحنث الدول بمواثيقها وتنقض عهدها فى [illegible] هذه الحرب ، ولم كان كل هذا التشهير بإنجلترا ناقضة العهود ، وممزقة المعاهدات ؟

لقد قيل فى تفسير الظاهرة العجيبة فى السياسة الأمريكية أنها راجعة إلى أن هذا عام الانتخابات ، وكل شخص حريص على إحراز أصوات اليهود . وإننا لا يسعنا إلا أن نرجو أن يكون هذا القول صحيحاً ، فإن أسفنا عظيم على أن يكون النظام الديمقراطى دافعاً الناس إلى الإدلاء بهذه الآراء الفجة ؛ ولكن أعظم منه ألف مرة أسفنا على أن تكون أمريكا دولة تنكب مختارة عن شرعة العدل والإنصاف !!

محمد عوض محمد

تركيا الحديثة

نهضتها الصناعية

كيف كانت الأحوال الاقتصادية في تركيا قبل قيام الجمهورية ، وما التركة التي خلفتها الإمبراطورية العثمانية الراحلة لأتاتورك في الصناعة والتجارة ؟ كان النشاط الاقتصادي أجمع مقصوراً على الأجانب ومن هم في حكم الأجانب من الأقليات المتجنسة بالجنسية العثمانية كالأرمن واليونانيين ، وكانت البلاد متأخرة في الصناعة والتجارة فلم يكن بها من الصناعات سوى قليل من النسيج اليدوي للسجاد ببلاد الأناضول ، وعمل الفخار والقرميد ببعض الجهات ، ومصانع صغيرة للقطن ، وجهد ضعيف لاستخراج الفحم من مناجمه على سواحل البحر الأسود ، وصناعة كيميائية ضئيلة ، وقليل من «الورش» المختلفة المحدودة الإنتاج ؛ أما صادرات البلاد فكانت لا تعدو الدخان والفواكه ، وكان تصدرها بيد رجال الأعمال الأجانب . وكانت المرافق العامة الرئيسية في المدن الكبرى كالترام والتليفونات والمياه والغاز والكهرباء ، وأحواض ترميم السفن بالبسفور ومرفأ أزمير ، كلها بيد الأجانب ويغلب أن يكون هؤلاء من الفرنسيين أو الإنجليز أو منهما معاً .

وكان البيت المالي ذو المركز الممتاز في البلاد هو البنك العثماني ، وهو مؤسسة يسيطر عليها الإنجليز والفرنسيون ، وكان له أثر بعيد المدى في امتداد النفوذ الأجنبي ، فقد ربط مالية البلاد بمالية إنجلترا وفرنسا ، وعن طريقه تسربت الديون الخارجية الأجنبية التي اقترضتها تركيا من الدول ، وهو الذي كان يقوم بأهم الأدوار في المفاوضات بشأن مقاولات الأشغال العامة التي مكنت إنجلترا وفرنسا من إنشاء سكك حديدية في البلاد تابعة لها ، وهو الذي كان يتولى إغراق البلاد بمختلف الشركات الأجنبية التي تستغل محصولات البلاد الزراعية والصناعية وتفوز منها بنصيب الأسد في الأرباح ، وهو الذي كان له الشأن الأكبر في إيجاد مصلحة الدين العثماني التي كانت تؤثر تأثيراً عظيماً في سياسة البلاد .

فالعبء الذي تلقته الجمهورية على كاهلها كان عبئاً ثقيلاً ، والتركة التي تسلمتها كانت تركة ضعيفة مثقلة بالديون . وكان عليها أن تحيي الموات وتعوض ما فات البلاد خلال قرون طويلة سادها التقصير والعجز والإهمال ، وتخلق في أسرع وقت صناعة قومية قوية تكفي البلاد حاجتها ، كما كان عليها أن تغزو الأجانب في هذا الميدان الذي انفردوا به ، وتنتزع منهم معاقلهم وحصونهم التي اعتصموا بها في قلب البلاد . وبغير ذلك لا يتحقق الاستقلال الصحيح للبلاد وتظل عرضة لتكرر المآسي التي كانت تحدث في الماضي ، والتي كانت أخطر عامل في ضعف الإمبراطورية العثمانية وانحلالها .

سارت الجمهورية في الإنعاش الصناعي على مرحلتين : الأولى في السنوات العشر الأولى من قيامها ، أي الفترة ما بين سنة ١٩٢٣ وسنة ١٩٣٣ ، والمرحلة الثانية في السنوات الخمس التالية ، أي من سنة ١٩٣٣ إلى ١٩٣٨ .

فأما المرحلة الأولى فكانت سياسة الحكومة فيها أن تترك الصناعة حرة للجهود الخاصة ، وأن تشجع هذه الجهود أكبر تشجيع بشتى الوسائل ، فمنحت المنشآت الصناعية مزايا كبيرة تتمتع بها ، وتزداد هذه المزايا كلما كبرت هذه المنشآت واتسعت ؛ وكانت تهب المصانع الأرض التي تقام عليها بلا مقابل ، أو تبيعها إياها بثمن زهيد يسدد على آجال طويلة ، كما كانت تقدم لها المساعدات في بنائها ؛ وأعفت المصانع من كثير من الضرائب ، وخفضت رسوم الجمارك على ما تستورده من الخارج من آلات أو خامات لازمة للصناعة . وإذا قيس حال الصناعة في آخر تلك السنوات العشر بما كانت عليه قبل بدايتها ، عد نجاح هذه السياسة باهراً ، فقد اتسعت أعمال التعدين والصناعات الخاصة بإنتاج الأغذية والصناعات التي تستخدم المحصولات الزراعية في البلاد ، وصناعات النسيج ، والصناعات الخشبية . وارتفع عدد العمال سنة ١٩٣٣ إلى

٦٢٠٠٠ عامل ، وكان سنة ١٩٢٣ حوالى ١٧٠٠٠ عامل وهذا عدا من يعملون فى الصناعات الصغيرة ويبلغ عددهم نحو ربع مليون .

وفى هذه المرحلة التى يصح أن تسمى مرحلة التشجيع لم تشترك الحكومة فى الصناعة اشتراكا فعليا إلا فى حالات محدودة ، فقد كان لها منذ سنة ١٩٢٣ عدد صغير من المصانع ، أهمها مصنع للأحذية ، وثلاثة مصانع للملابس ، وكلها قريبة من استانبول ، وكان يدير هذه المصانع بالنيابة عن الحكومة بنك يسمى بنك الصناعة والتعدين ؛ واضطرت الحكومة لأن تتولى إنشاء مصانع لتكرير السكر ، لما رأته من أن البلاد تعتمد اعتمادا كليا على ما تستورده من الخارج من هذه المادة ، مع أن بالإمكان إنتاج المحصولات الزراعية التى يستخرج منها فى البلاد ، لهذا أنشأت مصنعين للتكرير سنة ١٩٢٦ أعقبهما بآخرين بعد ، فكان للحكومة فى سنة ١٩٣٣ أربعة مصانع لتكرير السكر تكفى لإنتاج نصف ما تستهلكه البلاد منه .

أما المرحلة الثانية التى بدأت سنة ١٩٣٣ فهى مرحلة الاقتصاد المدبر والخطة المرسومة ، والاعتماد على جهود الدولة لا على جهود الأفراد والهيئات الخاصة . وتسمى هذه المرحلة برنامج السنوات الخمس للصناعة . وقد دفع الحكومة لهذه الخطوة أن السياسة التى سارت عليها فى إنعاش النهضة الصناعية فى المرحلة الأولى ، وهى سياسة إطلاق الحرية للجهود الخاصة فى أمر الصناعة وتشجيع المؤسسات الصناعية ، مع تكملة النقص بإنشاء بعض مصانع حكومية متواضعة ، هذه السياسة مع نجاحها النسبى كان سيرها بطيئا لا يحقق التطور الصناعى القوى السريع الذى تنشده الحكومة ؛ فكان لا مفر من أن تنزل الحكومة بنفسها إلى الميدان ، وتتولى بنفسها رسم خطة واسعة شاملة للصناعة القومية تقوم على تنفيذها فى خمس سنوات تبدأ من سنة ١٩٢٣ . وقد يكون مبعث هذا العزم القوى وهذا الاتجاه الجديد فى مهمة الحكومة هو ما شاهدته من نجاح تجربة مماثلة فى جارة متاخمة لها ، فقد كان نجاح الجمهورية السوفيتية فى برامج السنوات الخمس حافزا لها على أن تنهج فى بلادها مثل هذا النهج ، ومن المحقق أن هذه السياسة الجديدة لقيت تشجيعا من السوفييت ، واستطاعت تركيا أن تعقد قرضا بمبلغ ستة عشر مليونا من الجنيهات التركية أو نحو ثمانية من ملايين الدولارات الذهبية تستعين به على تنفيذ البرنامج .

أما البرنامج فكان ينصب على تحقيق غرضين : الأول إنشاء صناعات تقوم بإنتاج المواد اللازمة للاستهلاك المحلى ، والثانى إنشاء الصناعات الأساسية التى تقوم عليها كل الصناعات ، والتى تمد البلاد بوسائل الإنتاج ، وحدد البرنامج صناعات الاستهلاك التى ستنشأ فى الأصناف الآتية : المنسوجات على اختلاف أنواعها من قطنية وكتانية وصوفية وحريرية ، والورق ، والزجاج ، والخزف ؛ أما الصناعات الأساسية فهى : الفحم والكوك والحديد والمواد الكيميائية والنحاس والكبريت ؛ وقد أدخل على البرنامج بعض التنقيحات أثناء التنفيذ ، فأضيف إلى هذه المواد [illegible] . ولما تقدمت الحكومة بالبرنامج أعلنت أنها ستتولى بنفسها تفاصيل المشروعات وضعت نصب عينيها أمورا ثلاثة ، الأول : أن يكون إنتاج المصانع وعددها واتساعها بالقدر الذى يكفى مطالب الاستهلاك فى السوق المحلية ، فلا يبذل أى جهد أو وقت أو مال فيما زاد على ذلك ، ولا تفكر الحكومة فى إنتاج بضائع تصدر للخارج وتنافس فى الأسواق الخارجية صناعة أمم أسبق وأرسخ قدما فى هذا المضمار ؛ والثانى أن تقوم الصناعات المستحدثة على استخدام خامات البلاد من قطن وخشب وحديد وفحم وكبريت ورخام ؛ والثالث أن تنشأ الصناعات التى يعجز المجهود الخاص عن إيجادها على وجه ناجح .

وقدر لتنفيذ هذا البرنامج أكثر من أربعين مليون جنيه تركى ، وهو مبلغ يزيد كثيرا على ما اقترض من اتحاد السوفييت . ولهذا أسست الحكومة سنة ١٩٣٣ لتمويل هذه المشروعات والإشراف على تنفيذها وإدارتها بنكا جديدا سمته « بنك سومر » حل محل بنك الصناعة

والتعدين القديم ، وحدد اختصاص هذا البنك في قانون إنشائه فيما يلي :

«أن يدير المصانع الحكومية التي تسلمها من بنك الصناعة والتعدين ، وأن يقوم عن الحكومة بنصيبها في الإشراف على المؤسسات الخاصة التي تساهم فيها الحكومة ، وأن يعد التقارير والخطط اللازمة لكل مشروع جديد في الصناعة تكلفه الحكومة درسه ، وأن يتولى تلك المشروعات وإدارتها ، وأن يساعد بقدر ما تسمح به طاقته المالية كل المشروعات الصناعية التي يكون في وجودها نفع للاقتصاد القومي» .

ولم يكن المال هو الصعوبة الوحيدة التي واجهت الحكومة عند البدء في تنفيذ برنامج السنوات الخمس ، فقد كانت تعتزم أن تتم في خمس سنوات مشروعات اقتضى تنفيذها أكثر من خمسين سنة في أمم غربية عريقة في الصناعة ، ولم يكن لديها كفايتها من الخبراء الفنيين ولا من العمال الحاذقين ، وكان الشعب التركي حديث عهد بالاشتغال في المصانع على الأسلوب الحديث ، ووسائل المواصلات كانت عقبة أخرى لا يتيسر معها نقل المواد والبضائع إلى حيث تنشأ المصانع ؛ ومع هذا كله فقد سارت الحكومة قدما في سبيل تنفيذه وذللت كل تلك الصعوبات .

وقد روعي في اختيار مواقع المصانع عدة اعتبارات ، فلم يقتصر على مراعاة قربها من مصادر المواد التي تستخدم في الصناعة وسهولة المواصلات معها ، بل رأى بنك سومر كذلك أن ينشر الصناعة في مختلف أرجاء البلاد ، وألا يركزها في جهات بعينها فيخلق بذلك مدنا مزدحمة بالمصانع والسكان كما هو الحال في انجلترا مثلا . ولعل بعض الاعتبارات الحربية أملت ضرورة هذا الاختيار ، ولكنه كان اختيارا موفقا ملائما لظروف البلاد من ناحية أخرى . فقيام المصانع في قلب الأقاليم الزراعية يسهل للمزارعين الجمع بين الزراعة والصناعة فيشتغلون بالصناعة حين لا تحتاجهم الزراعة ، وبذلك تزداد إيراداتهم ويرتفع مستوى عيشهم ولا تفتقر المصانع إلى الأيدي العاملة . وكان أظهر نجاح في برنامج السنوات الخمس في صناعة المنسوجات ، فزاد عدد المغازل من ٧٢٠٠٠ مغزل في سنة ١٩٣١ إلى ١٨٩٠٠٠ مغزل في سنة ١٩٣٨ . والمصانع التي أنشأتها الحكومة مصانع ضخمة بنيت على أحدث طراز ، وألحق بها مساكن للموظفين والعمال ، وأفرد للعزاب منهم بناء خاص ، وللمتزوجين مساكن خاصة تعطى لهم بأجر زهيد ، كما ألحق بالمصانع مستشفيات ومقاصف وملاعب وسينما ومتنزهات وحمامات للسباحة وأندية للخيل ، وأكبر مصانع الغزل الحديثة في قيسارية ، وبه ٣٣٠٠٠ مغزل ، ويشتغل به ألفا عامل على نوبتين ، يشتغل كل فريق ثماني ساعات.

أما الطائفة الثانية من صناعات الاستهلاك التي تم تنفيذها خلال السنوات الخمس تحقيقا لبرنامجه ، فهي : مصانع الورق والزجاج والخزف ، وبنيت أكثرها بالقرب من استانبول ؛ وقد افتتح حديثاً في أزميت مصنع للورق ، أنشئ على أحدث طراز ، وإنتاجه وحده يكفي نصف استهلاك البلاد ، ويعتمد على مواد تنتج محلياً عدا السيلولوز الذي يستورد من الخارج إلى أن يتم إنشاء مصنع له وهو ينتظر أن [illegible] . وفي مصانعه بالقرب من استانبول شرع في إنشاء مصنع الزجاج ينتج سنويا خمسة آلاف طن ، وهو يقرب من نصف استهلاك السوق التركية . والصناعة الوحيدة التي لم تخط الحكومة خطوة فعلية لتنفيذها من برنامج السنوات الخمس هي الأدوات الصينية .

وتم كذلك تحقيق الجزء الثاني من البرنامج ، وهو القسم الخاص بالصناعات الأساسية أي الحديد والفولاذ والمواد الكيميائية ، فأنشئ مصنع الكبريت في قيصرلو سنة ١٩٣٥ ، وهو ينتج سنويا نحو ٤٠٠٠ طن من زهر الكبريت ، ويجري الآن إنشاء مصانع لحامض الكبريتيك بالقرب من زنجلداك ، وللكلور والصودا الكاوية بالقرب من أزميت ؛ وأنشئ مصنع الإسمنت في سيفاس . ومع أهمية هذه المواد فإن مستقبل تركيا الصناعي يتوقف في النهاية على مبلغ تقدم الصناعة الضخمة ، وهناك مركزان عظيمان اختيرا لذلك : الأول زنجلداك على ساحل البحر الأسود ، والثاني قرابوق على بعد نحو مائة ميل منها في الداخل ، ففي زنجلداك حيث مناجم الفحم

ينتج سنويا نحو سبعين ألف طن من الانتراسيت ، وفى قرابوق مصانع للحديد والفولاذ تعتمد عليهما الحكومة أكبر اعتماد فى تحقيق خططها المرسومة لتقدم الصناعة .

وإلى جانب « بنك سومر » قام « بنك اش » أو البنك التجارى ، وهو مؤسسة مستقلة شبه حكومية ، وقد عاون فى البحث عن مصادر الفحم فى زنجلداك وفى بناء مصنع الانتراسيت هناك ، وتولى تمويل صناعة تكرير السكر التى قربت من إنتاج ما يغطى كل الاستهلاك المحلى ، ونظم كذلك حركة التأمين على الحياة وقد كانت من قبل بيد الأجانب .

ومما أعدت الحكومة خطته فى برنامج ثلاث سنوات من سنة ١٩٣٧ التنقيب عن مصادر الثروة المعدنية فى البلاد واستغلالها ، وقد أسست الحكومة لذلك أيضا بنكاهو « بنك إتى » يقوم فى التعدين بمثل ما قام به بنك سومر فى الصناعة .

وفى البلاد مصادر ثروة معدنية واسعة ، ولكنها لم تعرف تماما ، ولم تستغل استغلالا كاملا إلا بعد قيام الجمهورية ، فقد كان الفحم يستخرج فى زنجلداك منذ قرن ، ولكن الإنتاج السنوى كان غير منتظم ، ولم يزد على نصف مليون طن ، وفى سنة ١٩٢٣ كان حوالى ٦٠٠٠٠٠ طن ؛ أما فى سنة ١٩٣٧ فقد بلغ إنتاجه ٢٣٠٠٠٠٠ طن ، وارتفع فى السنة التالية إلى ٢٥٠٠٠٠٠ طن ، ولا يزال مقدار الانتاج مع هذا قليلا بالنسبة لسعة موارد هذه المناجم ، وسيزداد كثيرا بعد إدخال آلات قطع الفحم الحديثة ، وتدريب العمال على المهارة فى ذلك . وأحسب الحكومة قد أتمت إدخال هذه التحسينات ، وأنها تنتج الآن بالفعل ما يزيد على ذلك كثيرا .

كذلك تقدم استخراج كثير من المعادن تقدما واضحا وزادت أهميتها فى السنوات الخمس عشرة الماضية ؛ وعلى سبيل المثال نذكر أن ما يصدر من الكروم سنويا ارتفع من ٣٤٠٠ طن فى سنة ١٩٢٣ إلى ١٩٢٠٠٠ طن سنة ١٩٣٧ ، وإنتاج اللينيت ارتفع من ٤٩١٠ طنا سنة ١٩٢٥ إلى أكثر من ١٠٠٠٠٠ طن سنة ١٩٣٨ . ويشرف على أمر المناجم وفحصها هيئة الدرس والبحث عن المعادن وهى هيئة حكومية قوية ، ودلت مباحثها على أن بالبلاد عدا الكروم كثيرا من الحديد والرصاص والخارصين والنحاس . ويقوم بنك إتى الآن بالعمل فى ثلاثة مناجم للنحاس بالجهة الشرقية ، وكانت أعمال التعدين قبل قيام الجمهورية بيد شركات أجنبية فرنسية وألمانية وإنجليزية ، وقد تم لبنك إتى فى برنامج السنوات الثلاث شراء حصص كل هذه الشركات ، وجعلها ملكا للحكومة التركية تتولى إدارتها بنفسها .

كذلك عهد لبنك إتى بترقية مصادر الطاقة بالبلاد ، ووضع لتحقيقها مشروع سنوات أربع ؛ وقد تم التعاقد على إنشاء محطة كبرى لتوليد الكهرباء فى سنة ١٩٤٠ ، وعملت مباحث عن البترول ، وفى ربيع سنة ١٩٤٠ فتحت آبار للزيت فى الجنوب الشرقى بالقرب من سيرت ، ويظن أن إنتاجها مع نصيب تركيا من زيت الموصل ، سيفى بحاجتها من هذه المادة .

وبالضرورة كان لابد من تحسين كبير فى طرق المواصلات عاشى هذه النهضة الصناعية الواسعة . وقد قامت الحكومة بجهد كبير فى ذلك ، فأنشأت سككا حديدية متعددة ، تصل المراكز الصناعية الجديدة بمختلف الجهات التى ترتبط بها هذه الصناعة ، كما حسنت طرق السيارات فى أكثر أنحاء البلاد ، وسارت على سياستها الأساسية فاشترت ما كانت تملكه الشركات الأجنبية منها .

وفى سنة ١٩٣٨ أعدت الحكومة برنامجا صناعيا لأربع سنوات يقوم على أساس التوسع فى الصناعات الثقيلة ، وزيادة إنتاج المواد المستهلكة ، ومواصلة النشاط فى كشف المصادر المعدنية واستغلالها ، وتحسين ما بدأته فى طرق المواصلات . وجاءت الحرب العظمى فقطعت سير هذا البرنامج ، واضطرت الحكومة لتعديله ، وجعل المثابة الأولى للصناعة التى تمليها الضرورة الحربية .

ويطول بى الكلام إذا أخذت فى الحديث عن مالية البلاد ونظامها المصرفى ، وحسبى أن أقرر أن الحكومة نجحت نجاحا كاملا فى خططها ، وحررت البلاد من النفوذ الاقتصادى الأجنبى ، وأنها نشطت نشاطا كبيرا فى استغلال مواردها جميعا .

***

شاعر بني مروان

عبد أسود ، أبوه وأمه نوبيان ، نصح له شيطانه في الشعر فلقنه أحسن المديح وأحسن النسيب ، فأفرغ مدائحه على طائفة من أمراء بني أمية وخلفائهم مثل عبد العزيز بن مروان وأخيه بشر وسليمان بن عبد الملك وأخويه يزيد وهشام ، فحبوه وكسوه وأخلوا له مجلسه وأحسنوا جائزته .

قرأت جملة من أخباره في الأغاني فشغلني النظر في محاسن عقله من النظر في محاسن شعره .

تناهى إلينا من صورة هذا العبد أنه كان أسود ، صدعاً ، خفيف العارضين ، ناتئ الحنجرة ، لم يروا قط مثله ولا أشد سواداً منه ، وتناهى إلينا من لباسه أنهم لم يروا أنقى ثياباً منه ولا أحسن زياً ، كان يُرى في بزة جميلة ، وكانت ثيابه في بعض الأيام قميصاً [illegible]

هذا كل ما وقع إلينا من ظاهر [illegible] ولبسه ، ومن نكد الدنيا على هذا العبد أن يضرب بينه وبين الفرزدق وجريراً وكثيراً والأحوص والكميت وذا الرمة وغيرهم ، فكان الجو غير خال له ، سد الأفق عليه شعراء كبار ، فاستطاع بفصاحته وتخلصه إلى جيد الكلام وشعره الرقيق وثنائه الأبيض أن يفتح أبواب هذا الأفق ، وأن يجاري ويزاحم من حوله من الشعراء ، ولكن الله تعالى اختصه بشيء آخر غير الفن ، فلم يبخل عليه بمسحة من العقل ، فعاش بفنه جليل القدر في عيون الأمراء والخلفاء ، وعاش بعقله راشد الأمر في دنياه .

هذا العبد نصيب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان .

أول آية من آيات عقله أنه لما قال الشعر كان شاباً ، فأعجبه قوله وهذا شأن كل شاعر في صدر أمره ، ولكن نصيباً لم تغره هذه الفتنة ، فقد خاف أن يعرض على الناس شعره فيسخروا منه ، إما لأنه عبد أسود ليس له هيبة في العيون ، وإما لأن الناس لا يعجبهم من شعره ما يعجبه ، فما الحيلة وهو يريد أن يعرف مبلغ شعره من القلوب ؟

كان يأتي مشيخة من مواليه وينشدهم القصيدة من شعره ثم ينسبها إلى بعض شعرائهم الماضين ، فإن استحسنوها نشط إلى الشعر وإن استقبحوها كف عنه ، ومن محاسن حظه أن الشيوخ الذين كان يأتيهم كانوا أصحاب ذوق سليم في الشعر ، فكانوا يقولون له : أحسنت ! هكذا يكون الكلام ، وهكذا يكون الشعر ! فنشأت بهذا القول ثقته بنفسه ، وطمأنينته إلى شعره ، ولكنه على الرغم من هذه الثقة كان الشك يخامره في شعره ، فلا بد له من الرجوع إلى غير من رجع إليهم ، فلم ير من حوله أنصح له من أخته أمامة ، فقال لها : أي أخية ! إني قد قلت شعراً وأنا أريد عبد العزيز بن مروان ، وأرجو أن يعتقك الله به وأمك ومن كان مرقوقاً من أهل قرابتي ، إلا أن أخته كانت عاقلة جلدة ، فلم يعمل فيها هذا الكلام وخافت على [illegible] ، فقالت له : إنا لله وإنا إليه راجعون ! [illegible] عليك الخصلتان : السواد وأن تكون ضحكة للناس ! فلم يجد نصيب مندوحة له بعد هذا الكلام عن أن يسمعها شعره ، فلما أنشدها وسمعت هذا الشعر استحسنته وقالت له : بأبي أنت ! أحسنت والله ، في هذا رجاء عظيم ، فاخرج على بركة الله .

خرج نصيب على قعود حتى قدم المدينة فوجد بها الفرزدق في المسجد ، فعرج إليه ، لأنه لا يزال أثر من الشك في قلبه على الرغم من نصيحة الشيوخ ونصيحة أخته ، فلا بد من معرفة رأي الفرزدق في شعره ، عرج إلى الفرزدق وعرض عليه شعره ، فقال له الفرزدق : ويلك ! أهذا شعرك الذي تطلب به الملوك ؟ قال : نعم ! قال الفرزدق : فلست في شيء ، إن استطعت أن تكتم هذا على نفسك فافعل .

كيف كانت حالة نصيب بعد سماع هذه الشهادة ، انفضخ المسكين عرقاً ، وانكسر قلبه ، ولكن الله

ما أراد أن يمحو اسم نصيب من الشعراء والعقلاء ، فقد حصبه رجل من قريش كان قريباً من الفرزدق وقد سمع إنشاده وسمع ما قاله له الفرزدق ، فأومأ إليه ، فقام إليه نصيب ، فقال له الرجل : ويحك ! أهذا شعرك الذي أنشدته الفرزدق ، قال : نعم ! فقال : قد والله أحسنت ! والله لئن كان هذا الفرزدق شاعراً لقد حسدك ، فإنا لنعرف محاسن الشعر ، فامض لوجهك ولا يكسرنك !

يعلم الله مقدار السرور الذي دخل على قلب نصيب بعد كلام هذا القرشي ، لقد انقطع كل ظن سيئ بشعره بعد هذا الكلام ، ووفرت في نفسه ثقته بشعره ، فليس له بعد تكامل هذه الثقة إلا الخروج إلى الأمراء والخلفاء وإفراغ المدائح عليهم .

أجل ، هذا أول مظهر من مظاهر عقله ، لم يتهور نصيب في فاتحة حياته ، وإنما استعمل عقله وربما أفرط في استعمال هذا العقل ، ولكن المسكين لم يفرط عبثاً ، فكأنه كان يعلم أنه إذا قدم مصر ليمدح عبد العزيز بن مروان وحضر بابه مع الناس فلا بد للقوم من أن يزدروه ويطردوه من الباب وينحوه عن مجلس الوجوه حتى يكون وراءهم ، وإذا دخل على عبد العزيز بن مروان فلا بد لعبد العزيز من أن يصعّد فيه بصره ويصوبه ، ثم يأمر السرير فيبرز للناس ويدعو بالأسود وهو يريد أن يضحك منه الناس ، فكأن نصيباً كان يحس بهذا كله ، فلم يشأ الإقدام على الإنشاد قبل التوثق من جودة شعره ، وقد هيأ الله له أمراء بني أمية وخلفاءهم ، فعرفوا قدره ومنزلته فليزاحم الفرزدق وكثيراً ، ولينقد الكميت وذا الرمة .

ولئن دله عقله على التوثق من بدء النجاح في الحياة فلقد دله هذا العقل على الرشد في الحياة كلها حتى استمر نجاحه من أول أمره إلى خاتمته . وكأنه كان يشعر بحسن عقله فعرف قدره ، ولم يتعدّ حدّه ، فقد نظر إلى الحياة نظرة الفيلسوف الذي لا يطلب فيها إلا هدوء البال ، فلم تنزع به همته إلى شيء من مناصب الدنيا ، مثل منادمة الخلفاء ، أو غير ذلك ، وإنما كان يكفيه من هذه الدنيا عيش ناعم وفكر هادئ ؛ وأية نعمة أعظم من هذه النعمة ! فقد دخل على عبد الملك فتغدى معه ، ثم قال له عبد الملك : هل لك فيما نتنادم عليه ؟ فقال نصيب : تؤمنني فضمن ، فقال : لوني حائل وشعري مفلفل ، وخلقتي مشوهة ولم أبلغ ما بلغت من إكرامك إياي بشرف أب أو أم أو عشيرة ، وإنما بلغته بعقلي ولساني ، فأنشدك الله يا أمير المؤمنين ألا تحول بيني وبين ما بلغت به هذه المنزلة منك فأعفاه عبد الملك .

وكما عرف قدره في باب الأمراء والخلفاء عرف قدره في أموره كلها فلم يخرج عنه ، فقد كان له ابن خطب بعد وفاة سيده الذي أعتقه بنتاً له من أخيه فأجابه إلى ذلك وعرّف أباه نصيبا ، فقال له نصيب : اجمع وجوه الحي لهذا الحال ، فجمعهم ، فلما حضروا أقبل نصيب على أخي سيده ، فقال : أزوجت ابني هذا من ابنة أخيك ؟ قال : نعم ، فقال نصيب لعبيد له سود : خذوا برجل ابني هذا فجروه ، فاضربوه ضرباً مبرحاً ، ففعلوا وضربوه ضرباً مبرحاً ، وقال لأخي سيده : لولا أني أكره أذاك لألحقتك به ، ثم نظر إلى شاب من أشراف الحي ، فقال زوج هذا ابنة أخيك ، وعليّ ما يصلحهما في مالي ، ففعل .

ولم يكن في ظلال النساء أشد منه اشتطاطا في ظلال الخلفاء ، فقد قيل له مرة إن ههنا نسوة يردن أن ينظرن إليك ويسمعن منك شعرك ، فقال : وما يصنعن بي ؟! يرين جلدة سوداء ، وشعراً أبيض ، ولكن يسمعن شعري من وراء ستر .

ولم تظهر أمارات عقله في تصرفاته وحدها ولكنها ظهرت في جولاته أيضاً ، وافى الحج قادماً من الشام في بزة جميلة ، فدخل على صديق له وهو يأكل مع جماعة فيهم كثير ، فدعوا نصيباً إلى الغداء فأكل مع القوم ، فرفع كثير يده وأقلع عن الطعام ، وأقبل القوم جميعاً على

كثير يسألونه أن يأكل، فأبى، فتركوه، وأقبل كثير على نصيب فقال له: والله يا أبا محجن إن أثر أهل الشام عليك لجميل، لقد رجعت هذه الكرة ظاهر الكبر، قليل الحياء، فقال له نصيب: لكن أثر الحجاز عليك يا أبا صخر غير جميل، وإنك لزائد النقص، كثير الحماقة!

وقال له مسلمة يوماً: أنت لا تحسن الهجاء، فقال: بلى والله؛ أتراني لا أحسن أن أجعل مكان: عافاك الله، أخزاك الله، قال: فإن فلاناً قد مدحته فحرمك فاهجه، قال: لا والله، ما ينبغي أن أهجوه، وإنما ينبغي أن أهجو نفسي حين مدحته، فقال مسلمة: هذا والله أشد من الهجاء.

ومن كانت هكذا جواباته فلا خوف عليه إذا عيروه العبودية، فإنه يعرف كيف يدفع كلامهم، قال قائل له: أيها العبد، مالك وللشعر؟ فقال: أما قولك: عبد، فما ولدت إلا وأنا حر، ولكن أهلي ظلموني فباعوني، وأما السواد فأنا الذي أقول.

وإن أك حالكاً لوني فإني ... بعقل غير ذي سقط وفيه

* * *

هذا يسير من عقل نصيب، شاعر بني مروان، فهل بلغ كثير منا معاشر البيضان من جودة التصرف في الفعل وفي القول ما بلغه هذا العبد، أحد عقلاء السودان!

(دمشق) شكيب جبري

ضغط الدم

عزيزي رئيس تحرير مجلة الثقافة:

جاء في عدد «الثقافة» الماضي تحت العنوان المتقدم، وهو بغير إمضاء، ما يلي:

«ولكل إنسان ضغطا دم يؤخذ أحدهما حين يضرب القلب بأقصى قوته، وهذا يقرب من عمر الإنسان مضافاً إليه مائة، أي يكون ١٤٠ لمن عمره ٤٠ سنة . . . أما الآخر فيؤخذ حين يسترخي الرء ويستريح القلب الخ».

وأظن أن الصواب فيما كتب كاتبكم الكريم هو ما يلي: إن دم الإنسان له حقاً ضغطان، ولكنهما ليسا على ما وصفتم، فهذان الضغطان واقعان متلاحقين في كل دقة من دقات القلب. فالقلب ينقبض فيدفع الدم في الجسم فيزيد ضغطه في الشرايين فيبلغ مثلا ١٢٠، ومعنى هذا ١٢٠ مليمترا من الزئبق فوق الضغط الجوي. ثم يعود القلب فينبسط فيقل الضغط في الشرايين، كأن يبلغ مثلا ٨٠، ومعنى هذا ٨٠ مليمترا من الزئبق فوق الضغط الجوي. ويسمى الضغط الأول وهو الأكبر ضغط الدم الانقباضي systolic ويسمى الضغط الثاني وهو الأصغر ضغط الدم الانبساطي Diastolic. وهذان الضغطان يتناوبان باستمرار في الدقيقة الواحدة عددا من المرات كعدد دقات القلب. وهما واقعان على أي حال كان الإنسان، صحا أو نام، جاع أو شبع، استراح أو تعب، تصلب أو استرخى.

أحمد زكي

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر:
٤٥ في مصر والسودان
٣٧/٥ لطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العدد ١٥ مليما

حول البترول الذاهب

عالج الدكتور أحمد زكى بك فى افتتاحية العدد الماضى هذا الموضوع بأسلوب الأديب البارع فكان موفقاً كل التوفيق . ولكننا لاحظنا أنه اقتضب الجزء الأخير من البحث الذى أطلق عليه اسم «الجانب الأقل اسوداداً» ؛ ولعله يتكرم فيعود للبحث مرة أخرى ليبين لنا أولا مصير أربعة أخماس البترول الذى فى الآبار التى يستخرج منها الزيت فى الوقت الحاضر ، هل هذا المقدار الهائل تمتصه الرمال ، أم هو يمضى من خلالها فيتسلل إلى محابس أخرى يستطيع الإنسان أن يتتبعه إليها وينقض عليه فيها فيرفعه إلى سطح الأرض ؟

كذلك لعله يوضح لنا ثانياً كيف أنه مع تقدير أهل الفن احتمال وجود البترول فى مساحة أكثر من نصف أرض الولايات المتحدة ، كيف أنه مع هذا التقدير قد تملكت فكرة اقتراب موارد الزيت بالولايات من النضوب ، تلك الفكرة التى فزع الناس منها وأثارت فى الرأى العام الخوف بل الهلع . إن الإنسان لا يستطيع أن يوفق بين هذه المخاوف وتلك التقديرات ، اللهم إلا إذا افترضنا أن تلك الصيحة العالية المنذرة بفناء الزيت كانت بمثابة دعاية سياسية ، تتخذ تكأة للمبادرة بالاستيلاء على زيت بلاد العرب واستثماره .

ومهما يكن من أمر فإن البحث وراء الزيت فى نصف أرض الولايات المتحدة ، ومحاولة استرداد أربعة أخماس الزيت التى التهمتها الرمال فى الآبار الحالية ، كل هذا سيتكلف نفقات طائلة ، وسيكون من أثره أن الزيت الذى سيستخرج بهذه الكيفية سيكون أغلى ثمنا ، كما أن الزيت الموجود فى الآبار الحالية سيرتفع سعره كلما نضب معينه واقتربت نهايته .

أفلا يكون جديراً بالعالم فى مثل هذه الحالة أن يعير اهتماما لمحاولات استخراج البترول من المنتجات الزراعية ومن فضلات الحقول ومن بعض الحشائش ؟ نعم إن مثل هذه العمليات تتكلف كثيراً مما يجعل الزيت المستخرج منها غالى الثمن إلى حد كبير ، لكن كل صناعة جديدة تكون فى مبدأ أمرها عظيمة التكاليف ، فإذا هذبت وحسنت قلت تكاليفها بالتدريج ، حتى إذا وضعت موضع الإنتاج على نطاق واسع انخفض رقم التكاليف كثيراً .

وإذا كان صحيحاً أن البنزين الصناعى يكلف ألمانيا أربعة أمثال ما يتكلفه البنزين المستخرج من الآبار الطبيعيـة ، فإن الموقف يكون مليئاً بالأمل ذلك لأن المواد التى تستخدمها ألمانيا هى وأجر العامل فيها كثيرة النفقة بحيث لو أجريت نفس العمليات فى غيرها من البلدان (كالبلدان الشرقية) حيث المواد الخام رخيصة وأجور العمال قليلة نسبياً فإن تكاليف الإنتاج تهبط إلى حد كبير .

واستخراج البنزين صناعياً ليس قاصراً على ألمانيا ، بل إن هناك فى الولايات المتحدة محاولات عدة لهذا الغرض ، وقد قرأنا أن بحوثا تجرى فى هذا الصدد بمعهد كرنيجى التكنولوجى على يد الأستاذ الدكتور إرنست بيرل ، فهناك تحت سماء بتسبرج الممتلئة بالدخان استطاع هذا العالم ، الذى كلل الشيب رأسه ، أن يحاكى الطبيعة ، وأن يحدث ، بالاستعانة بالحرارة والضغط العالى ، فى ساعة واحدة ما تحدثه هى فى ملايين السنوات . وقد هيأ بذلك عمليات تمكن الإنسان من الحصول على ما يريده من الجاسولين باستخدام المحاصيل الزائدة على الحاجة وبعض الأعشاب ، وجميع فضلات الغيط بل أية مادة تحتوى الكاربوايدرات .

أفلا يرى الدكتور أحمد زكى بك أن هذه العمليات التى يجريها الدكتور بيرل وأمثاله فى الولايات المتحدة ، والعمليات التى يستخدمها الألمان فى استخراج البترول

مخلفات الخشب

إن المنتجات الخشبية أي الأثاث والأدوات وغيرها من الأشياء المصنوعة من الخشب لا تتجاوز في مقدارها ثلث الخشب المكون للأشجار التي قطعت لتصنع منها تلك المواد الخشبية ، أما الثلثان الباقيان فيضيعان هدرا ويذهبان هباء في اللِّحاء (القشر) وفي النُّشارة والنُّحاتة ، وفي القِطَع الصغيرة التي تتخلف في الأطراف ، وعند تشكيل الخشب على الصورة المطلوبة ، إلى غير ذلك .

وقد كانت أغلبية هذه المتخلفات لا ينتفع بها إلا في الحريق في بعض المصانع والأفران بنسب ضئيلة ، أما الباقي فكانت تضيق به مصانع الخشب ذرعا وتعد لحرقه حفرا وأفرانا خاصة تشتغل ليلا ونهارا لتخلص الصنع من هذا الحمل الثقيل .

أما اليوم فقد تغيرت الحال وأصبحت تلك الفضلات الخشبية على جانب عظيم من الأهمية ، وقل بالتدريج ما يحرق منها ، وأصبحت تستخدم في الصناعات فتستحيل إلى مواد نافعة لا ستنبئه بعد ، بحيث أصبح استخدام مثل تلك الفضلات في الحريق ، حتى في مصانع الخشب نفسها ، سفها اقتصاديا ، وقلما تفضل هذه المصانع أن تشتري وقودا آخر لتنتفع بتلك المخلفات الخشبية انتفاعا يدر عليها ربحا وافرا .

خذ مثلا لذلك النشارة التي يستحيل إليها نحو ١٣٪ من الكتل الخشبية التي تتولى قطعها ونشرها الآلات المخصصة لذلك ، هذه النشارة التي كان تراكمها يضايق مصانع الخشب كما قدمنا ، قد اكتشفت لها استعمالات قيمة ، فمنها [illegible] صنع حامض الأكساليك ، وحامض الخليك ، والكحول المثيلي ، والأثيل ، وسكر الخشب .

[illegible] طرق إنتاج سكر الخشب والكحول [illegible] عدة عمليات صناعية لاستخراج هاتين المادتين من نشارة الخشب وغيرها من متخلفاته ، وقد تقدمت هذه العمليات في ألمانيا منذ الحرب العالمية الماضية حتى أصبحت من مقومات الإنتاج لهاتين المادتين فيها ، وقد فر كثير من رجال تلك الصناعة من ألمانيا ولجئوا إلى الولايات المتحدة حيث وضعوا تجاربهم تحت تصرف البلاد التي أووا إليها . ومن هذه الطرق والعمليات ما نشأ في الولايات المتحدة من أول الأمر وكان محل دراسة وتحليل واهتمام .

خذ مثلا آخر اللحاء (القشرة) فلم يكن يعرف أحد له فائدة اللهم إلا استخدام بعض أنواعه من قديم الزمان في استخراج العفص المستعمل في الدباغة ، وفيما عدا ذلك كان يلقى به في المهملات ؛ إلا أنه منذ عامين أو ثلاثة خطر ببال أحد رجال صناعة الخشب الأحمر في كاليفورنيا أن يستخدم

من الفحم ، أفلا يرى في ذلك كله ما [illegible] على ما يهدد العالم من قحط في زيوت الوقود ؟! بل ويفتح لنا ، نحن البلاد الزراعية بصفة خاصة ، سوقا جديدة مربحة لتصريف جميع الفضلات الزراعية وما أكثرها عندنا .

وهل لنا أن نؤمّل حقا في أنه سيأتي علينا حين من الدهر يدخل المرء فيه إلى المعمل يحمل قدرا من الأعشاب ، فيخرج منه بقدر من الجاسولين ؟! وإذا حدث هذا بالفعل فهلا يكون فيه شيء من محاولات مد الأنابيب الزيتية عبر القارات ، ويجنب ما تسبب هذه العمليات من صراع دولي عنيف ، على مسرح السياسة العلنية ومن وراء الكواليس على أيدي ممثلي الدول العظمى ؟!

لعلنا نظفر من الدكتور أحمد زكي بك بكلمة شافية في هذا الصدد .

أ . ى

لحاء هذا الخشب فى صنع مادة عازلة ، وسخر لذلك بعض الباحثين من الكيمائيين ليحققوا له غرضه ، وقد ابتكروا بالفعل عملية يفتتون بواسطتها هذا اللحاء بالفرقعة وتم لهم بها ما أرادوا تحقيقه .

إلا أن الطريف فى المسألة أنهم حصلوا بصفة عرضية غير متوقعة على نتاج ثانوى آخر ، وهو أليـاف قد أمكن استخدامها فى النسيج ، وقد فحصت عينات القماش الذى أمكن إنتاجه بخلط هذه الألياف القشرية مع بعض أنواع الصوف بنسبة تتراوح بين ٢٥ إلى ٥٠ فى المائة من الأول وبين ٧٥ و٥٠ فى المائة من الثانى — فحصت هذه العينات فوجدت من حيث الدفء كالمنسوجات الصوفية الخالصة ، وهى تمتاز برخص ثمنها ؛ وقد اهتمت الحكومة الأمريكية بهذه النتيجة أكبر اهتمام لتستعين بها فى حل مشكلة كساء الملايين من جنود الجيش .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الصوف الخالص الذى تنتجه أمريكا الشمالية والجنوبية سنويا يبلغ نحو مليون ونصف مليون من الأرطال ، بينما إذا استخرجت الألياف اللحائية التى يحتويها كل الخشب الأحمر الذى يستخدم فى صنع الألواح الخشبية ، وحولت إلى نسيج فإنها تضيف إلى مادة النسيج الخام بأمريكا سنويا ما زنته نحو ١٣٠ مليونا من الأرطال .

هذا عن تحويل متخلفات الخشب إلى مواد أخرى نافعة . وهناك طرق عملية ابتكرت للانتفاع بالخشب من غير تحويل فى مادته ، وإنما بإحداث تحويل فى صورته بواسطة الضغط العالى .

فى إحدى هذه العمليات تسحق النشارة والمساحة والقطع الصغيرة حتى تصير مسحوقا ناعما يزج به بطريقة ميكانيكية فى جهاز يعرضه لضغط يبلغ نحو عشرين ألف رطل على البوصة المربعة ، فيحيل هذا المسحوق الناعم إلى كتل كثيفة متماسكة ، تكون فى الغالب على شكل قوالب أسطوانية قطرها نحو أربع بوصات ، وطولها نحو ١٢ بوصة ، تستخدم وقودا جيدا فى مواقد التدفئة بالمنازل ومواقد الطبخ وغيرها ، بدلا من الفحم ومن الخشب العادى .

وهذه القوالب تمتاز بسهولة تناولها ونظافتها ، وقلة الرماد المتخلف عن احتراقها ، ويصدر عن الرطل منها من الحرارة ما تبلغ قيمته مابين ٨٠٠٠ و١٠٠٠٠ من الوحدات الحرارية (B. T. U.) . وبالولايات المتحدة عدة مصانع لهذه القوالب ، وعليها طلب كثير ، لأن الناس تتهافت على استخدامها لمزاياها تلك .

وفى عملية أخرى يحول الخشب وفضلاته بالضغط إلى ألواح وصفائح صلبة جامدة قوية تستخدم فى البنـاء ، ويستهلك منها سنويا ملايين من الأقدام المربعة ، أغلبها يبلغ سمكه البوصة ، وإن كان من السهل لحم الطبقات بعضها فوق بعض حتى تتكون الشرائح المطلوبة من أى سمك يراد .

وهذه العملية بدأت كغيرها من العمليات بقصد استخدام المتخلفات العادمة التى كانت تتراكم فى المصانع ، التى تشتغل فى خشب الصنوبر ، ولكنها قد اتسعت الآن اتساعا عظيما ، بحيث يجلب لها الخشب الخام بدلا من الاقتصار على مخلفاته ؛ ولذلك فإن أصحاب تلك المصانع يطالبون ويشجعون زرع الغابات ليضمنوا على الدوام موارد خشبية لصناعتهم .

وفى هذه العملية أيضا يفتت الخشب قطعا صغيرة ، وهذه القطع تتعرض لفرقعة بواسطة ضغط البخار (البالغ ١٠٠٠ رطل على البوصة المربعة) فيحيلها إلى ألياف رفيعة متناثرة ، تنظف وتكرر ، ثم تكبس تحت تأثير الحرارة والضغط فتتحول إلى شرائح أو صفائح كما قدمنا .

من منبر الشرق :

كتابة العصــا

فلنستأنف حديثنا من منبر الشرق . . . بعد فترة طويلة .

إلى حضرة الأستاذ الجليل الدكتور عبد الوهاب عزام المحترم .

سيدى وسندى :

لعمرى قد راعتنى المحاضرة التى ألقيتموها فى الجمعية الجغرافية أخيراً عن نشأة الخط العربى وتأريخه وتطوره أثناء العصور الإسلامية ، وكم آسفنى أن ظروفاً حالت بينى وبين حضور محاضرتكم الثانية التى كان أعربتم فيها عن إعـانكم الوثيق بتفوّق الخط العربى على الخط اللاتينى للعبارة عن مزايا اللغة العربية من جهة ، وبصلاحيته للإصلاح فى رسمه وشكله من جهة أخرى . وليس مصادفة أن هاتين المحاضرتين تقعان فى هـذه الأسابيع التى تثور فيها المناقشة فى جميع المحافل والمجالس حول مشروع عُرض على هيئة علمية ذات وقار فى إبدال الخط العربى بالخط اللاتينى ، أو على الأقل بخط يعالج الحركات معالجة الحروف بوضع تلك على مستوى هذه ، على غير ما هى عليه فى الخط العربى خاصة وفى الخطوط السامية عامة ، حيث تكون نسبة الحرف إلى الحركة فيهـا كنسبة الجسم إلى النفس . ولا يتسع هنا المقام لدخولى فى هذه المناقشة .

قد سردتم فى محاضرتكم الأولى الأطوار المختلفة التى مرت بها الكتابة الإنسانية قبل أن تصل إلى الخط الأبجدى أو خط الحروف ، وأظهرتم ما كان فى ابتكار خط الحروف من العبقرية ، إذ أنقذ تسجيل اللغات المختلفة بل أكثرها من أيدى الكهنة الأفراد أصحاب أسرار وخدع الخاريق ، وأداه صالحاً للاستعمال تحت قدم كل من أحسن نيته فى تعلّم ثلاثين علامة كتابية فأقل . ونبهتم عند ذلك إلى الآثار الكتابية القديمة التى كشفت عنهـا معاول الحافرين ، والتى وسعت معرفتُها بل حلُّ رموزها نطاقَ ذكر الإنسانية بماضيها . ذكرتم الخطوط الفونيقية وما اشتق منها من الأبجديات الآرامية فالسريانية فالتركية القديمة فالسنسكريتية فالفارسية القديمة والمتوسطة ، هذا إلى الشرق ، وأما إلى الغرب فاليونانية وبعدها اللاتينية ، ومنها كل الخطوط الغربية الحديثة . فكأن ابتكار مبتكر وحيد فتح العالم بحذافيره ، وأهدى إلى الإنسانيــة جماء آلةً تعرب بها عن أفكارها وأحلامها .

وأذكرتم بهذه المناسبة ما أورده أصحاب الأثنولوجيا — أو كما أردتُ أن أسميهم أصحاب المباحث الشعوبية القبائلية — من القصص الطريفة فى شأن ما يدعى عندهم كتابة العصا ، تلك الكتابة السرية التى يقال عنها إنها تستعمل إلى اليوم عند بعض القبائل فى قلب إفريقيا أو أميركا ، ومبدؤها أن تلف عصا الراعى بسيور من الجلد متلاصقة بعضها ببعض ، حتى تكسو العصا بكاملها ، ثم يكتب عليها ما يقصد به إخبار الغير ، ثم تزال تلك السيور عن العصا ، ولا تردّ إلى وضعها الأول إلا عند وصول الرسول إلى من يؤدى إليه رسالته السرية . هكذا قول أصحاب الأثنولوجيا ، وفى الحـديث لا شك طرافة ، ولـكن أطرف من هـذا أن أجدادكم من أدباء العرب قد عرفوا كتابة العصا حق معرفتها ، ووصفوها وصفاً ليس وراءه من دقة .

قد أتيحت لى الفرصة مراراً أن أتحدث عن كتاب « التنبيه على حدوث التصحيف » لأبى عبد الله حمزة بن الحسن الإصفهانى ، وأن أنقل منـه بعض النصوص ، ولا سيا تلك النصوص التى يتكلم صاحبها فيها عن الحروف العربية وأخطارها وحاجتها إلى الإصلاح ، وعن خطوط سائر الأمم من الحميرية والفارسية والعبرية والسريانية واليونانية والرومية (كذا) والقبطية والبربرية والأندلسية

والهندية والصينية شارحاً كل واحد منها على سعة طاقته ومعرفة أهل زمانه .

ونقلت أيضاً من كتاب حمزة ذلك الاقتراح الرائع الذي أورده باسم معاصره أحمد بن الطيب السرخسي تلميذ الكندي في إصلاح الخط العربي حتى يصبح صالحاً لتجنب التصحيف أولا ، وللعبارة عن أصوات اللغات جميعها على مختلف مخارجها ثانياً . وقد أورد حمزة بهذه المناسبة وصفه الدقيق لما سيتموه وسماه هو كتابة العصا ، مما يدلنا على أن هذه الكتابة السرية ليس حيّزها ودائرة استعمالها بعضَ القبائل الهمجية حديثاً ، بل كان استعمالها شائعاً عند الفرس القدماء وأساساً من أسس إداراتهم لبلادهم .

قال حمزة : « . . وكانت للفرس كتابة أخرى تسمى كتابة العصا حكاها الشلمغاني[1] ولم يعرفها المتوكلي[2] فسمعت بكرا الأقليدسي يقول : سألت الشلمغاني عن معنى هذين البيتين :

أي كتاب بالطي نعرفه ومنه غير بيّن أحرفه
والنشر مما يزيل صورته وكتبنا كلها يخالفه

فقال : هذا نعت كتابة العصا ، وكانت كتابة ملوك الفرس ، يودعها الأسرار التي يخاطب بها خواصَّ عمالها في بلدان أعمالها . ولم يكن يخط بمداد ولا يجري مجراه ، وإنما كان يعمد إلى جلد أبيض فيقد منه سيرا طويلا ثم يعمد إلى عصا الفيج[3] أو المكارى ، فيلف السير عليها ويضم حروف السير بعضها إلى بعض ، ثم يدعو بمسامير فتركب في سير على العصا كي يتماسك ، ثم يكتب عليه ما يخاطب العامل به . وإذا فرغ من الكتابة سلت المسامير وكشف ذلك السير عن العصا ، فكان لا يبين منها إلا نقط متفرقة ، ثم يلف السير ويجعل كالطبق ويقال للفيج أو المكارى : إذا نزلت منزلا فضع طعامك عليه ليوهم أنه طبق طعامك . فيكون هذا دأب الرسول إلى أن يبلغ إلى حضرة المكتوب إليه ، فحينئذ يرد لف السير على العصا كما كان رسم به ، بأن يجعل الثقب التي في السير تجاه الثقب التي في العصا ويشد المسامير في الثقب ، ثم يضعها عند المكتوب إليه . فهذا هو الكتاب الذي إذا طوى وضم بعضه إلى بعض أمكنت قراءته ، وإن نشر زالت صورته ، فصعبت قراءته .

« ثم سألت عنها أحمد بن على البرق[4] المتكلم فقال : نعم هذا صحيح ، وأخذ درجا من الكاغد بين يديه فكسر منه شبيها بورقتين وضم أثناءه بعضها إلى بعض ، ثم كتب عليه شيئا يقرأ ثم نشره وبسطه ، فصار في كل موضع من الورقتين كالعلامة والنقطة ، فقال هذا هو الكتاب الذي يعنيه ذلك البيتين .

قال بكر (يعني الأقليدسي) : ولم أدر واحدا من المعنيين ، ولا خطر لي ببال . ولكني مررت بصحّاف عنده مجلد فنظرت إلى حروف الأوراق الممسوحة بالسيف وقد كتب عليه كتاب كذا وكذا ... فكان هذا يقرأ مادام منضماً ، فإذا نشر وتباينت الأوراق صارت الكتابة كالنقطة والعلامة في حروف الورق فهذا الذي أردته » .

فهذا الذي أردته . ويا ليت كتاب حمزة وفق بعناية ناشر له حسب المخطوطات العديدة التي سردتها في « الثقافة » عدد ٢٢٣ ، لأنه لا يمكن استيعاب الثروة الثقافية والعلمية التي يحويها في مقالات وجيزة من منبر الشرق .

أرجو أن تكونوا راضي النفس مطمئن الضمير موفوري العافية . وتفضلوا بقبول أصدق تحياتي وأطيب أماني .

بارل كراوس

(١) هو أبو جعفر محمد بن علي الشلمغاني المعروف بابن العذاقر الكاتب من غلاة الشيعة الذي صلب في سنة ٣٢٢ وكان من أصحاب ابن أبي العون الكاتب المشهور صاحب كتاب « التشبيهات المعرفية » راجع عنه معجم الأدباء ج ١ ص ٢٩٦ وما يليها وكذلك فهرست ابن النديم .

(٢) هو زرادشت بن آزر خور المعروف بالموبذ المتوكلي الذي كتبت عنه في « الثقافة » عدد ٢٢٢ معتمدا على كتاب التصحيف لحمزة الأصفهاني وغيره من المصادر .

(٣) كلمة فارسية معربة أصلها باذق ، أو پيذق أي الماشي أو الجندي .

(٤) من متكلمي الشيعة المشهورين .

سقوط مملكة إشبيلية

ومحنة بني عباد

لما انهارت دعائم الخلافة الأموية بالأندلس في أوائل القرن الخامس الهجري ، وقامت على أنقاضها دول الطوائف كانت دولة بني عباد في إشبيلية أقوى الدول الجديدة وأعظمها شأناً ؛ وكان أمراء الطوائف في شقاق مستمر ، يقاتلون بعضهم بعضاً ، وينتزع القوي منهم أملاك الضعيف ، ويحالفون النصارى بعضهم على بعض ؛ وكان الأمراء النصارى يرحبون بهذه الفرص للتفريق بين الأمراء المسلمين ، وإضعاف شوكتهم ، ثم إخضاعهم وانتزاع أراضيهم تباعاً . ولم يشذ بنو عباد عن هذه السياسة الخطرة ، فقد قام عميدهم ومؤسس دولتهم القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد في إشبيلية ، اتجهت أطماعهم إلى محاربة جيرانهم المسلمين وانتزاع ما بأيديهم ، واشتبك أبو القاسم ، ومن بعده ولده أبو عمرو عباد الملقب بالمعتضد بالله ، في سلسلة من الحروب الطاحنة مع أمراء غرناطة ومالقة وقرطبة انتهت باستيلاء بني عباد على قرطبة وقرمونة واستجة وما حولها من الأراضي ، واتسعت بذلك مملكة إشبيلية وغدت أعظم قوة في جنوبي الأندلس .

وخلف المعتضد بالله ولده أبو القاسم محمد (سنة ٤٦١ هـ) ؛ وتلقب بالمعتمد على الله والظافر بحول الله ؛ وكان المعتمد من أعظم ملوك الطوائف إن لم يكن أعظمهم جميعاً ، وقد اشتهر بخلاله الباهرة من البراعة والشجاعة والفروسية والجود والبذخ ، كما اشتهر برفيع أدبه ورائع نظمه ، وكما اشتهر بمحنته وخاتمته المؤسية ؛ وفي عهده سطعت مملكة إشبيلية وكادت تسيد بهائها وفخامة بلاطها مجد قرطبة الذاهب ولكن هذا البهاء الخلب كان يغشاه كدر الشقاق المستمر بين الإمارات الإسلامية ؛ وكان المعتمد بالرغم من ذكائه وفطنته يرى نفسه مضطرا إلى سلوك نفس المنحدر الخطر الذي انساق إليه أبوه وجده من قبل في سبيل السيادة والملك ؛ ولم ير بأساً في سبيل تحقيق أطماعه أن يمالئ ملك قشتالة على إخوانه المسلمين ، وأن يتعهد له بدفع الجزية ؛ وكان ملك قشتالة يومئذ أميرا وافر العزم والدهاء هو ألفونسو السادس ، وكان يعمل بكل ما وسع للضرب والتفريق بين الأمراء المسلمين ، ويؤلب بعضهم على بعض ولا يضن على حلفائه منهم بعونه وتأييده ؛ وكان المعتمد بن عباد ، يرى في جيرانه بني ذي النون أمراء طليطلة أشد خصومه خطرا عليه ، ويسعى جهده إلى إسقاطهم وسحق دولتهم ؛ وقد نشبت بينه وبين يحيى بن ذي النون الملقب بالمأمون عدة وقائع دموية ، فقد المعتمد خلالها قرطبة وقتل بها ولده سراج الدولة ؛ ثم عاد فاستردها ، وهو يضطرم وجدا وحنقا ، ويروم الانتقام من بني ذي النون بأي الوسائل . ولما توفي المأمون ، وخلفه ولده الضعيف القادر ، انتهز المعتمد هذه الفرصة فغزا أراضي طليطلة واستولى على كثير من أعمالها ، ولم يقتنع بهذا النصر الجزئي ؛ وكان جل همه أن يسحق مملكة بني ذي النون حتى يخلو له الجو في جنوبي الأندلس وفي شرقيه ؛ ولم يكن يحول دون غايته سوى تحالف بني ذي النون مع ملك قشتالة . وكان ألفونسو السادس بالرغم من صداقته الظاهرة لبني ذي النون ، الذين آووه وأكرموا وفادته أيام محنته ، حينما هزمه أخوه سانشو ، واستولى على مملكته قبل ذلك بأعوام ، يضمر لهم في الواقع أخبث النيات ، ويتطلع إلى انتزاع مملكتهم المتداعية ، ولم يكن يخشى في ذلك سوى مناوأة ابن عباد وخصومته وعلى ذلك فقد سعى المعتمد إلى التفاهم مع ملك قشتالة ، وأوفد إليه وزيره الشهير ابن عمار ، وقد كان يومئذ أبرع ساسة الأندلس ، لمفاوضته ، وعقدت بين الملكين محالفة سرية ، تعهد فيها ألفونسو بمعاونة المعتمد على محاربة خصومه من الأمراء المسلمين أو النصارى ، وتعهد المعتمد من جانبه بأن يترك ألفونسو حرا في محاربة طليطلة والاستيلاء عليها ، وأن يؤدي له جزية الخضوع ؛

وتضيف الرواية النصرانية إلى ذلك أن المعتمد قبل أيضاً أن يقدم إحدى بناته زوجة لملك قشتالة ، وأنها حظيت لديه فيما بعد ، وتنصرت باسم الزابيث ، وأنجب منها ولداً هو سانشو الذى قتل حدثاً فى موقعة « إقليش » . وهى رواية تحمل فى نظرنا سيما الإغراق والبطلان[1] .

وتم لملك قشتالة ما أراد ، ولم يمض سوى قليل حتى استولى على طليطلة بعد حصار قصير (٤٧٨ هـ — ١٠٨٥ م) وانتهت بذلك مملكة بنى ذى النون ، وسقطت منيع معاقل الأندلس فى يد أسبانيا النصرانية ؛ وشهدت الأندلس جامدة مروعة تلك الكارثة التى تنذرها بشر المصير ؛ وسرعان ما أدرك المعتمد بن عباد سوء تصرفه وفداحة الخطأ الذى ارتكبه . ذلك أن حليفه ألفونسو ، ما كاد يفتتح طليطلة حتى انقلب عليه يطالبه بالجزية ويطالبه بتسليم بعض الأراضى والحصون التى كانت تحت حكمه بحجة أنها تابعة لطليطلة ؛ وثار الخلاف بين الحليفين ، وتوعد ألفونسو المعتمد بشر العواقب . وشعر المعتمد بالخطر الذى يهدده من حليفه القديم ، وشعر أمراء الأندلس جميعاً بأن ملك قشتالة سوف يجتاح قواعدهم وأراضيهم كلها إذا لم يبادروا إلى الاتحاد والتضافر على قمع الخطر المشترك ؛ واجتمعت كلمتهم على توحيد القوى والخطط ؛ بيد أنهم رأوا أن قواهم المضعضعة لم تعد تكفى وحدها لدرء الخطر . وانتهوا بعد البحث والتشاور إلى وجوب الالتجاء إلى إخوانهم المسلمين فى الضفة الأخرى من البحر ، ودعوتهم إلى إنجادهم وغوثهم . وهكذا استغاث ملوك الطوائف بعاهل إفريقية أمير المرابطين يوسف بن تاشفين اللمتونى ، وكان المرابطون يومئذ فى أوج سلطانهم وقوتهم ؛ واستجاب أمير المسلمين يوسف إلى نداء أمراء الأندلس ؛ وعبر إليهم فى جيش ضخم ، وسارت قوى الإسلام المتحدة إلى قتال ألفونسو السادس ؛ والتقى الفريقان فى « الزلاقة » ، فهزم النصارى هزيمة فادحة ، وكانت من أيام الإسلام المشهودة (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ م) ، وفيها استمد الإسلام حياة جديدة .

— ٢ —

وعاد يوسف إلى إفريقية بعد أن شهد أحوال الأندلس وأحوال أمرائها ، وأدرك هذا الأمير التابه الذى كان يؤثر العيش الخشن على ملاذ الملك ونعمائه ، أن الحياة الناعمة التى انغمس فيها أهل الأندلس هى التى قوضت منعتهم ، وفتت فى وجوههم وعزائمهم ، وأن الشقاق الذى استحكم بينهم ، والذى لم ينقطع من بعد عوده ، سوف يقضى عليهم جميعاً بلا ريب إذا تركت الأمور فى مجراها ، وسوف يمهد لاستيلاء النصارى على جميع أنحاء الجزيرة فى أقرب وقت ؛ ومن ثم فقد اعتزم أمره نحو الأندلس ونحو أمرائها العابثين المتنابذين ، المترامين على أعتاب العدو فى سبيل قتال بعضهم بعضاً .

وفى سنة ٤٨٣ هـ عبر يوسف إلى الأندلس المرة الثالثة بعد الجهاد ، وكان قد عبر إليها من بعد الزلاقة مرة أخرى ولكنه لم يقم يومئذ بغزوات ذات شأن ؛ وازداد سخطاً على أمراء الأندلس لما بدا من تقصيرهم فى نصرته . ولما عبر المرة الثالثة كانت تحدوه نحوهم نيات خطرة ؛ وسار تواً إلى غرناطة فاستولى عليها ، وبعث بأميرها عبد الله بن بلكين سجيناً إلى أغمات ؛ ثم ألقى أوامره بافتتاح قواعد الأندلس الأخرى ولا سيما إشبيلية إلى قائده سير بن أبى بكر ، وارتد إلى العدوة يجهز الجيوش والإمداد .

وزحفت الجيوش المرابطية على معظم قواعد الأندلس وافتتحتها تباعاً ، وقتل جميع أمرائها أو أسروا ، وكان بين القتلى الأمير العالم الشاعر ابن الأفطس عمر المتوكل صاحب بطليوس وولداه ؛ وسار سير بن أبى بكر بنفسه إلى إشبيلية ؛ وأدرك المعتمد بن عباد أنه سوف يخوض مع المرابطين معركة الحياة والموت ، فتأهب للدفاع عن مملكته وحاضرته بكل ما وسع ؛ واستغاث بحليفه ألفونسو السادس

(١) هذا ما ترجمه بعض الروايات الكنسية واللاتينية الأسبانية ، وقد أشار إليها المؤرخ الألمانى أشباخ فى كتابه : « تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين » ؛ وتراجع فى ١ ص ٣٨١ من الأصل الألمانى .

فأمده بجيش كبير ، ولكن المرابطين هزموه على مقربة من قرطبة ؛ واشتبك المعتمد في قواته بالمرابطين في عدة مواقع ؛ ثم ارتد إلى إشبيلية وامتنع بها لما شهد من تفوق المرابطين عليه في الكثرة والأهبة ؛ وشدد المرابطون الحصار على إشبيلية ؛ وسقطت في تلك الأثناء قرطبة في يد المرابطين ، وقتل فيها المأمون ولد المعتمد مدافعاً عنها . ثم سقطت رندة ، وأسر فيها ولده يزيد الراضي بالله ، وقتل بالرغم من العهود التي قطعت بتأمينه ؛ وشعر المعتمد بالأمل يغيض في نفسه شيئاً فشيئاً ، ولكنه استمر على مقاومته حتى اقتحم المرابطون إشبيلية عنوة ، وانقضوا عليها كالسيل الجارف ، يعثون فيها سفكاً وتخريباً ؛ واستقبلهم المعتمد في خاصته على باب قصره يدافع عن نفسه وملكه حتى اللحظة الأخيرة ؛ ولكن هذه البسالة النادرة لم تغن شيئاً ، فاستولى المرابطون على المدينة ، وأسروا المعتمد وآله ، واحتووا على قصره وماله ومتاعه (٢١ رجب سنة ٤٨٤ هـ — سبتمبر سنة ١٠٩١ م) .

وهكذا سقطت مملكة بني عباد الزاهرة ، وخبا نجمها الذي سطع حيناً في سماء الأندلس ، ولكنها سقطت أبية كريمة ، في مناظر من الفروسة الرائعة تخلق بالأُلى شادوها ؛ ولم تسقط قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة على يد عميدها الباسل . ومن الخطأ التاريخي ما ترجمه بعض الروايات من أن المعتمد سلم عاصمته إلى المرابطين بالأمان مختاراً[1] . والحقيقة التي تجمع عليها معظم الروايات الإسلامية ، والأندلسية بنوع خاص ، هو أن المرابطين اقتحموا إشبيلية وأخذوها عنوة في مناظر رائعة من التخريب والسفك ، وأن المعتمد بن عباد لم يدخر وسيلة في الدفاع عن نفسه وعاصمته ، وأنه ظل يدافع حتى اللحظة الأخيرة ، حتى اقتحم الأعداء قصره ، وأسروه . وقد انتهت إلينا في ذلك رواية شاهد عيان هو أبو بكر محمد بن عيسى الداني المعروف بابن اللبانة شاعر المعتمد وصديقه ، فهو يصف لنا في كتابه « نظم السلوك في مواعظ الملوك في أخبار الدولة العبادية » مناظر سقوط إشبيلية التي شهدها بنفسه في قوله :

« إلى أن كان يوم الأحد الحادي والعشرون من رجب ، فعظم الخطب في الأمر الواقع ، واتسع الخرق فيه على الراقع ، ودخل البلد من جهة واديه ، وأصيب حاضره بعادية باديه ، بعد أن ظهر من دفاع المعتمد وبأسه وتراميه على الموت بنفسه ما لا مزيد عليه ، ولا انتهى خلق إليه ؛ فشبت الغارة في البلد ، ولم يبق فيها على سبد لأحد ولا لبد ؛ وخرج الناس من منازلهم يسترون عوراتهم بأناملهم ، وكشفت وجوه المخدرات العذارى ، ورأيت الناس سكارى وما هم بسكارى ... »[1]

وينقل لنا الفتح بن خاقان مؤرخ الطوائف ومعاصرهم تقريبا منظر الصراع الأخير بين المعتمد ومهاجميه في تلك العبارات القوية المؤثرة : « ولما انتشر الداخلون في البلد وأوهنوا القوى والجلد ، خرج (أي المعتمد) ، والموت يتسعر في ألحاظه ، ويتصور من ألفاظه وحسامه يعد عطائه ، ويتوقد عند انتضائه ، فلقيهم في رحبة القصر ، وقد ضاق به فضاؤها ، وتضعضعت من رحبتهم أعضاؤها ، فحمل فيهم حملة صيرتهم فرقا ، وملأتهم فرقا ، وما زال يوالي عليهم السكر المعاد ، حتى أوردهم النهر ، وما بهم من جواد ، وأودعهم حشاه كأنهم له فؤاد ، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاء حاله ، وذهاب ملكه وارتحاله ، وعاد إلى قصره ، واستمسك به يومه وليله ، مانعاً لحوزته ، دافعاً للذل عن عزته ... »[2]

وهذا ما يؤيده شعر المعتمد نفسه في وصف ذلك اليوم

(١) ينفرد صاحب روض القرطاس بالقول بأن إشبيلية سلمت المرابطين بالأمان (ص ١٠١) ولكن ابن الأثير (ج ١ ص ٦٥) وابن خلكان (ج ٢ ص ٤٠ و ٤١) وابن خلدون (ج ٦ ص ١٨٦) ، والفتح بن خاقان في قلائد العقيان (ص ٢١ ، ٢٢) والمراكشي (ص ٧٧) والمقري في نفح الطيب (ج ٢ ص ١٠٣) يتفقون جميعاً على أنها أخذت عنوة . ويأخذ دوزي بهذه الرواية (ج ٣ ص ١٤٩ ، ١٥٠ طبعة جديدة) .

(١) نقله نفح الطيب (ج ٢ ص ٤٥٣) .

(٢) قلائد العقيان ص ٢٢ في ترجمة المعتمد بن عباد ؛ وقد كتب الفتح كتابه بعد سقوط إشبيلية بنحو ثلاثين عاما .

أدب الأسبوع ...

« هذا رأيي وعليّ تبعته وحدي ... ... »

حديث المال !

حديث الأدب في هذا الأسبوع هو حديث المال ؛ في الصحف والمجلات ، وفي البرلمان ، وفي الأندية العامة ، وفي المجالس الخاصة — لم يكن للناس حديث إلا حديث المال . ولم يكن هذا الحديث الذي شغل الناسَ واستأثر بتفكيرهم في هذا الأسبوع ، مقصوراً على طائفة من أهل الرأي دون طائفة ؛ فقد كان له من عناية أهل الأدب والاجتماع مثل ما له من عناية أهل السياسة ورجال الاقتصاد ، واستمع الناس إلى رأي طه حسين إلى جانب ما استمعوا من آراء علي الشمسي ، وإسماعيل صدقي ، ومكرم عبيد ..

... وكان حديث المال ، في هذه الفترة ، حقيقاً بهذه العناية ، حقيقاً بما استأثر من تفكير أهل الأدب والاجتماع ومن أهل السياسة ورجال الاقتصاد ؛ كالكلمة الأولى من حياة الناس ، فلم تزل للمال مكانته منذ كان ؛ ولكن لسكانة مصر ، ذلك البلد الذي يعيش ٩٧ في كل مائة من أهله ، عالةً على ما يتصدّق به ٣٪ ... وإنه مع ذلك ليزعم أن له حق الحياة !

بلى ، ليس حديث المال في هذا البلد حقاً موقوفاً على إسماعيل صدقي ، وعلي الشمسي ، ورينيه قطاوي ، وأحمد عبود ، والبدراوي عاشور ، لأنهم وحدهم الذين يملكون المال ؛ فإن كل فرد من هذه الملايين التي تعيش في ذلك الوادي لأكثر حقاً في التحدث عن شئون المال من كل أولئك ؛ لأن هذه الملايين لا تملك من المال ما تقوم به أسباب الحياة ؛ والحياة هبة الله ، فمن حق كل حي أن يتسبب لحياته !

بلى ، وإنه إذا كان حقاً لكل فرد في هذه الأمة أن يتحدث عن المال ، وحسبه من المال الحديثُ عنه ، فإنه فرض مفروض على كل ذي رأي من أهل الأدب أو من أهل الاجتماع ، أن يتحدث ، وأن يكتب ، وأن يوجّه الناس توجيهه إلى ما يرى ، حتى يعتدل الميزان وتتكافأ الكفتان ويستلم كلُّ ذي حق حقه فيناله .

هذا مكان القيادة لمن يريد أن يبلغ بأمته مبلغاً !

عيرة الجوع !

أرأيت إلى حديث الناس عن أخلاق هذا البلد ؟ أعني حديثَ المصريين عن أنفسهم ...

يقولون : إن مصر ليس لها خُلق عام ، فأشخصها فرداً فرداً تعرف لكل فرد من أهلها خُلقَه الذي يتعامل به مع الناس إن عرفت ، ولكنك لن تعرف لهذه الأمة في مجموعها خُلقاً عامًّا تتميّز به شخصيتها وتتحدد معناها ؛ فثمة الكذب ، والزلق ، والنفاق ، والوقيعة ، والأثرة ، وما أشفق أن أحصي من سيئات ؛ حتى لا أراني مبالغاً إن قلت : إنك لا تجد في جميع من تعرف من أهل هذا البلد اثنين يمكن أن يتعاونا على نفع عام ، إلا أن يكون لكل منهما وجهٌ فيما يعمل فإنه لينظر من ورائه إلى منفعة تناله ! !

هكذا يقولون ، وإني لأزعم أنهم صدقوا .. ولكن ..

الشهود إذ يقول :

إن يسلب القوم العدا ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
قد رمت يوم نزالهم ألا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميص عن الحشا شيء دفوع
وبذلت نفسي كي تسيل إذا يسيل بها النجيع
أجلي تأخر لم يكن بهواي ذلي والخضوع
ما سرت قط إلى القتال وكان من أملي الرجوع
شيم الألى أنا منهم والأصل تتبعه الفروع

ثم يقول لنا الفتح إن المعتمد لما التجأ إلى قصره بعد سقوط حاضرته وتفرق جيشه ، وفقد كل أمل في النجاة ، فكر في أن يقضي على نفسه بيده ، ولكن منعه من ذلك إيمانه وتقاه ، فاستسلم إلى هوان الأسر ، وقبض عليه المرابطون وعلى جميع ولده ونسائه وآله .

(للكلام بقية) محمد عبد الله عنان

ولكنى لا أتهم ؛ إن هذه الأمة لكريمة المعدن ، وليس من طبيعتها هذه الدنايا ، ولا هى جريرة أهلها ، ولكنها جريرة الجوع ! !

ماذا يفعل الجائع حين لا يجد سبيلا إلى رزقه إلا أن يداهن وينافق ، وإلا أن يوقع بين الأخوين ، وإلا أن يخطف اللقمة التى تميته وتقيم بنيه على الحياة ، وإلا أن يستذل ويستخذى ويتعبد لمن لا يستحق السيادة ؟

لستُ أدافع عن هذه الدنيّات . ولستُ ألتمس العذر ، للرجل الكامل من الوقوع فيها ، ولكنى أذكر الضعف الإنسانى فى سواد الناس ، وفى المجموع الذى تتألف من أفراده كلُّ جماعة تربطها رابطة الجنس أو رابطة الوطن — أذكر ذلك فأرثى لهذه الأمة التى حكم عليها أن تعيش فى الحرمان والجوع ، ثم راحوا يعيبون على أبنائها ما يعيبون من أخلاق بعث لهم بلقمة العيش !

هم يعيبون على أبناء هذه الأمة ما يعيبون ؛ فليعترفوا لهم بحقهم فى الحياة ، وليجودوا عليهم بما حبسوه من رزق الله ، ثم ليمتحنوا أخلاقهم ليعرفوا أى معدن صيغ هذا الشعب الكريم

عيش الموظف :

وكان الموظف المسكين هو الهدف الذى تتراى إليه النبال من حيث لا يستطيع أن يتقى ... فهل عرف أولئك الرامون كيف يعيش الموظف فى هذه السنين وقبل هذه السنين ...

وهل تتبّع واحدٌ منهم خطاه ساعةً واحدةً فى أول يوم من الشهر الكريم ، ليعرف بكم قرش يعود إلى داره فى أول يوم من الشهر ، وكان منذ ساعة يملك العشرات من الجنيهات ؟ ...

وهل عرفوا كم موظفاً فى الدولة يعيش لنفسه فليس له أخ ولا أخت ولا أم ولا زوج ولا ولد ، كلهم يقتضيه مرتباً فى أول الشهر بحق الإنسانية أكثر مما تعطيه الدولة بحق العمل الدائب ، والجهد المضنى ، والكرامة المبذولة طاعةً للرئيس وأصدقاء الرئيس ؟ ...

أحسَبُهم يعرفون مستيقنين أن ما يأخذه الموظف المسكين من خزانة الدولة لا يقبض عليه بيده ، ولا ينفع به نفسه ، نفسه ؛ ولكنه رسول الأمانة ، يقبضها ليؤديها إلى أربابها بلا أجر ولا مثوبة ، ليس له منهـا إلا فخر المعطى ، ورضا النفس بما يُعطى !

فهذه الملايين التى تَرصدها الدولة فى ميزانيتها كل عام للموظفين ، ليست هى حقّ الموظفين على ما أدّوا للدولة من عمل ، ولكنها حق أولئك الملايين من أبناء الشعب وبناته ، وآبائه وأمهاته ، وإخوته وأخواته ؛ إنهـا حق أولئك الملايين من الفقراء المعدمين الذين يكفلهم الموظفون ويؤووهم ويفرضون على أنفسهم أن يعيشوا لهم ، وأن يبذلوا من أجلهم كل ما تمنحهم الدولة من أجر العمل الدائب ، والجهد المرهق والكرامة المبذولة طاعة للرئيس وأصدقاء الرئيس .

خمسة وعشرون مليوناً للموظفين ! يا هُ ! تلث ميزانية الدولة أجور ومرتبات ! ...

أرى هؤلاء اللاغين يثبتون على الرأى لو غيّرت الدولة اسم هذا الباب من أبواب الميزانية فسمّته ما كان ينبغى أن يسمّى ولم تسمّه « باب الأجور والمرتبات » ... لو سمّته « باب الإعاشة والتموين » وإنه لكذلك وإن اختلف العنوان !

إن من حق هؤلاء الملايين الذين يكفلهم الموظفون أن يشبعوا من جوع ، وأن يكتسوا من عُرْى ، وأن يصحّوا من مرض ، وأن تؤويهم دور صحية يستشعرون فيها طعم الحياة — من حقهم على الدولة أن تيسر لهم أسباب العيش ، وأسباب الكرامة الإنسانية ؛ ولهم على الدولة حق المواطن الحر فى الأمة الحرة ، فلو لم يكفلهم أولئك الذين يكفلونهم من الموظفين لكان فرضا على الدولة كفالتهم ، وطعامهم ، وكسوتهم ، ومأواهم ؛ فكم يكلّف الدولة هـذا الواجبُ إن كان هؤلاء اللاغون يعترفون بحق كل مواطن على الدولة فى أن تُيسّر له أسباب عيشه ؟

... فليحسبوا حسْبتهم ، ثم لينظروا أى التقديرين أنفع لخزانة الدولة لو حسّبتْ الأشياء بأسمائها ، أم تراهم لا يعترفون بحق هؤلاء الأحياء فى الحياة ؟

توزيع الثروة :

ويقولون : أوليس في البلد فقراء مُعدمون من حقهم على الدولة أن يعيشوا ، غير أسرات الموظفين ومن يكفلون من الآباء والأمهات والإخوة والأخوات ؟

بلى ، في البلد غير هؤلاء ، ملايين لا يبلغها الإحصاء ، من الفلاحين والأجراء والعمال والمنقطعين من أسباب الرزق — من حقهم على الدولة كذلك أن يعيشوا ، وأن يستشعروا طعم الحياة ، وأن يخلعوا عن أعناقهم آصار الذل والعبودية لعشرات ، عشرات من أصحاب الملايين لا يعرفون هم أنفسهم فيم يجمعون هذه الملايين ولا يفكرون في وجه من أوجه الانتفاع بها !

ولكن هؤلاء الملايين الذين لا يكفلهم موظفون في الدولة ، ولا ينالهم كثير ولا قليل من « باب الأجور والمرتبات » — هؤلاء الملايين من المحرومين لا يصح أن يكون وجودهم وكثرتهم سبيلا إلى حرمان غيرهم ؛ وإنما ينبغي أن تفكر الدولة فيهم كذلك ... الأب من بنيه ؛ أرى من حق أن الدولة ينبغي أن تقوم الدولة منهم مقام الموظف من أسرته .

وإنما هي سبيل واحدة ، سبيل واحدة تتحقق بها العدالة الاجتماعية بين الطبقات ، أعني بين طبقتي الشعب : الطبقة التي تملك ولا تُنفق ، والطبقة التي لا تجد ما تنفق ؛ الطبقة التي تملك كل مرافق الدولة ولا تزيد أفرادها على ٣٪ ، والطبقة التي تعدادها ٩٧٪ ولا تملك شيئاً من أسباب الحياة ...

... هذه السبيل هي أن تضع الدولة نظاماً لجباية الضرائب غير نظامها ، نظاماً يجعل من حقها أن تحاسب كل ذي مال عن غلته ، وعن حاجته ، وعما يفيض ؛ نظاماً لا يفرض الضريبة على الرأس ، ولا على الفدان ، ولكن على مقدار الغلة ، وعلى ما فوق الحاجة ؛ ليستشعر كلُّ ذي مال أن غناه غنى لأمته ، ويستشعر كل ذي خلة أن له حقاً في أمته ؛ فلا يَبْطَر الغنيُّ بماله ويأخذه سُعار المال فينسى الحلال والحرام ؛ ولا يذل الفقير ويستخذي ويتعبد لمن لا يستحق السيادة !

مركب الفقر !

ورأيت موظفاً عند ميدان السباق ، في بزة الأمير ، وعيشة السيد المتأمِّر ، وأناقة الوجيه الوارث ؛ وقال لي صاحبي الذي كنت أقص عليه من حديثي : فهذا موظف ؛ أتراك تزعم أن من حق مثله على الدولة أن تغدق عليه وأن تبذل له ، وأن ترصد له ثلث ميزانية الدولة ؟

قلت : فهذا واحد !

قال : ولكني أعرف مئات مثله ، كلهم خفيف الظهر ، ليس وراءه ما يعنّيه أو يحمل همه ، لا تلزمه نفقة أم ولا أب ولا زوجة ولا ولد ؛ بل إن منهم ذا الأب والأم ، أو ذا الزوجة والولد ، لا يُلزم نفسه معونتهم وإنهم في حاجة ؛ وإنما ينفق ما ينفق مما تمنحه الدولة لشهوته وهواه ، أو للأناقة والتظاهر ؛ أفي أجل هذا دفاعك ؟

... ثم وسيجد اللاغون بابا إلى القول في مرتبات الموظفين حين يذكرون الثلث من أمثال هذا الموظف السيء ... يستمتع هذا الموظف ويزين له السفه والإسراف أولئك اللاغون أنفسهم ، إن هؤلاء المتبذخين من أصحاب الثروات الذين يغشون كل ناد ، ويتنعمون بكل متنعم ، ويبذلون حيث كان ينبغي الإمساك ، ويُمسكون حيث كان ينبغي البذل — هؤلاء المتبذخين الذين يلومون هذا الموظف وأمثاله على ما يصنعون ، ويلومون الدولة على ما تعطيهم ، هم الذين زيّنوا له هذا السبيل بالقدوة ، وبالإغراء ؛ لا أقول إنهم دعَوه فأجاب ؛ ولكني أقول إنه رأى مذهبهم فذهب ، وكان به نوعٌ من « مركب النقص » أو « مركب الفقر » ، فأسرف ؛ ولو رأى لهم سبيلا إلى الجاه والسيادة غير التأنق في اللباس والإسراف في الزينة ، والتأمّر في السوق ، والتعالي على الفقر ، لرأوا منه غير ما رأوا ...

ألا ليت هؤلاء اللاغين المسرفين في الملامة ، رضُوا أن يعيشوا أسبوعاً من كل عام عيشة الموظف . إذن لكان لهم يومئذ رأي غير ما يرون اليوم . يا ليت ! قاف

امرأة وملاك !

— طاب صباحك يا آنسة فريدة ! .. كيف أنت وعلم الأحياء ؟ .

— بخير يا عزيزى وأنت كيف حالك مع القانون الرومانى فى أزمة الرومان ! .

امتزجت ضحكاتهما وضاعت كدائرة واسعة فى الممر المفضى إلى السلم الكبير فى (البانسيون) الذى تديره أرمنية شمطاء كرة الأنامل شحيحة ، وافترقا إلى اللقاء فى المساء ! .

كانت فريدة فتاة سمراء رقيقة الحاشية ، حلوة النكات ، مرحة طروبا ككل فتيات الجنوب ! .. وكان صوتها رخيما عذبا يتأرجح فى جمال أخاذ فى أوائل أو أخريات الليل عندما كانت تتعب من المذاكرة والدرس !

كانت تدرس الطب بشغف كبير ، وتعيش من إيراد طيب يردها من أمها فى ابتداء كل شهر . وكان إحسان على العكس رجلا دائم التقطيب ، كثير الجدو الرزانة وعلى وجهه سيماء قلق دائم ، وكان منكفئا على دراسة القانون ينظر إلى الأمور بوجه مكفهر ... ومع ذلك فقد كانت الصحبة الطويلة ألفت بين قلبيهما ، وامتزجت خفة روح الآنسة فريدة بصرامة روحه وأناته وبروده المشهود .

عادت فريدة فى المساء وكانت مرحة ضاحكة ككل مرة ، وقبل أن تدخل غرفتها المنسقة بذوق فتاة مهذبة مثرية عرجت تسأل عن صديقها وتبلغه تحية المساء !

وكان إحسان مطرق الرأس يفكر ناسيا كل شىء .. وكانت الظلمات تغشى الغرفة والنور الضئيل يحتجب من النافذة الوحيدة المطلة على الشارع الفرعى ، قالت بصوت فيه رعدة الفرح : وماذا بعد يا صديق ؟ .

— لا شىء يا عزيزتى ... إنها خواطر الحياة ! .

— ليس هذا .. إنى أقرأ فى عينيك كآبة عميقة ، قل لى يا صديق أية عاصفة خيالية تجتاح قلبك الملىء بالأحلام ؟!

— لم تعد لى أحلام يا آنسة فريدة ... إنى أسبح الآن فى ضباب خانق ... إن حياتى تبدأ طريقها المجهولة ولا أدرى كيف سأرى النور ... وكيف أصل النهاية !

— أبهذه القسوة ؟ تعال معى يا صديق .. تعال إلى غرفتى لأدلك على أشياء جميلة ... إن غرفتى مليئة بالأضواء ، وهناك روائح عميقة تملأ سماءها . إنها غرفة شعرية لفتاة تقضى وقتها بالتشريح ورائحة الأدوية . هلم معى .. إنى أقودك إلى واحة مريحة .

— إن الروح المظلمة يا آنسة فريدة لا تضيئها الأنوار ... دعينى أخلد إلى السكون فهو العزاء الوحيد .. إنى أرجو لك راحة البال ! .

مسحت رأسه الأشعث بأناملها الرقيقة . حتى لامست جبهته المغضنة وقالت : قل لى كل شىء بصراحة وإلا هددتك بفقدان صداقتى ... وليس أعز لديك من هذه الصداقة إذا لم أك مخدوعة ! .

— صدقت .. إن صداقتك لشىء ثمين ولكن كآبتى شخصية ... إنها آلامى الخاصة .

— لا تكن أنانيا ... أريد أن أعرف سبب هذا التحول السريع .

— السبب ! .. أتريدين السبب يا آنسة ؟

— أجل . لابد أن أعرف ... إن قلبك ليس مغلق النوافذ كما تظن .

— إن منشأ ألمى ... آه ... هذه مسألة خاصة .

— ولكنها تهمنى ... أعرف ذلك جيداً يا فيلسوف القانون الرومانى . سأمزق كل هذه الكتب التى تملأ ذهنك بالكلمات والحذلقات إذا لم تبح وتطلعنى على السبب ...

— حسن إذاً ... (إن أبى قد تزوج ...) .

— ومن أجل ذلك تدخل فى مناحة روحية كالنساء !

— إن المسألة يا فريدة ليست سهلة كما تظنين ... عند ما ماتت أمى قبل خمس سنوات تركت وراءها أربعة أطفال ودعاء ... ولكن هذا العنصر الجديد سيملأ تلك الحياة الوديعة بالحقد والأحزان .

إنى أفكر فى هؤلاء الصغار أكثر مما أفكر بأبى أو نفسى أو بأى شىء آخر ...

— عقلية ساذجة ... ما هذا الهراء ، إن المرأة مهما كانت صلفة فلا تخلو من عاطفة الرحمة ، ثم إنه لم يبق أمامك لإنقاذهم غير سنة وبعض سنة . . . هيا معى . . . إن لدى أسطوانة جديدة « لكارمن ميراندا » وستضحك كثيرا لأن صوتها أشبه بالمواء ...

وتمشيا معاً صامتين ، ودخلا الغرفة المضاءة حيث كان كل شىء يرحب ترحيباً شعرياً بالقادمين .

***

— أمكتئب أنت من جديد ؟..

— كما ترين !..

— آه إنك تجتاز سلسلة من الأحزان فى هذه الأيام ... هل نسيت أن واجبك الأول النجاح لإنقاذ الصغار الأعزاء ؟

— لم أنس ولكنى لا أستطيع ... لا أستطيع مواصلة الدراسة بعد الآن ...

— يا لك من ساذج ... ما هذا ؟! ... إنه كلام عار من كل روية وحكمة ...

— هذا حكم القدر ... إنه إرادته !..

— حكم القدر ؟..

— أجل ، أجل ، لقد قطع أبى عنى الورد الضئيل ولم يبق أمامى غير النزول إلى الحياة والعمل للكسب ... ومن أجل هؤلاء أيضاً سأهدم كل أحلامى العذاب .. وأشتغل ..

— صه ... ما هذا الكلام الفارغ ... وإذا كان الورد قد انقطع عنك .. فهل متُّ أنا أيضاً ؟! .

— فريدة !.. ما هذا ... إنى أرفض أية يد تمد إلىّ بمساعدة ... إنى رجل أعوّل على نفسى !

— ولكن أنا ... أنا أملك مالا طائلا وثروة تفيض من حاجاتى اليومية ... إنى أنفق أكثر راتبى الذى يرد من أمى على توافه الأمور فلماذا لا تناصفنى هذا الورد؟

— أنا أناصفك ؟ أترين هذا معقولا ؟.. كلا كلا !!..

— لابد من القبول !... فكر بدون أنانية فيما أقول !

— آه ... هذا قول جزاف ، باسم ماذا أقبل المساعدة منك باسم ماذا ؟! ... إنه لشىء مؤلم يلقى على روحى كابوساً لا يطاق ...

واقتربت الآنسة فريدة منه وطوقت عنقه بحرارة وقبلته من ثغره المرتعد قبلة عميقة حارة وقالت : باسم الحياة الحياة الزوجية المشتركة ... أقبل من خطيبتك بعض القوت والمساعدة ريثما تعيد إليها أياماً حافلة بالمسرات !..

ووقف إحسان ذاهل الفكر ونظر فى قرارة عينيها ثم طوقها بذراعيه ، وقال بصوت كالهمس ضاع مع قبلة طويلة : « أنت امرأة وملاك . . . » وخيم سكون طويل ترجم الصمت قصة المستقبل لفتى وفتاة ! ...

(بغداد) عبد المجيد لطفى

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر